رواية

# مِن بَقَايَا الذَاكِرة

سلسبيل المقطري

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

# من بقايا الذاكرة

الكتـــــاب: من بقايا الذاكرة
المـــؤلـــف: سلسبيل المقطري
تنسيق داخلي: عمر جويا
الطبعة الأولى: يناير 2020
رقم الإيـــداع: 2020/1641
978-977-992-091-7 :I . S . B . N

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

# من بقايا الذاكرة

رواية

**سلسبيل المقطري**

**هي المرة الأولى التي أمسك بها قلمي كترجمان**

**أُحول الآهات إلى كلمات**

**والأنات إلى أسطر..**

**والحقيقة أنّي هنا لا أكتب**

**أنا فقط أردد صرخات المكلومين، وعبرات المظلومين**

**أحاول هنا أن أكون صدًى لما يحدث هناك في أكبر سجون العالم**

**(تركستان).**

# الفصل الأول

تسارعت النبضات، الضيق بدا واضحًا، والزفرات تعلو، التأفف يتوالى، والهاتف يتقلب بين يدَيْ جيو، ضاقت عيناه، ونفد صبره، ثم بعد المحاولة الخامسة أجاب شيان على الهاتف، صرخ جيو في أذنيه كطبول معلنة بداية الحرب:

- «أين أنت يا رجل؟ كم تنام؟ تذكرني بآكل النمل، ينام ١٨ ساعة في اليوم.. منذ ساعة وأنا أحاول الوصول إليك.. لقد خرجت منذ الصباح.. وأنت لا تزال تتقلب على سريرك..».

- «لا تصرخ يا هذا.. يبدو أنه لا أحد يمكنه أن يرتاح هنا! كنت منشغلًا بأمور مهمة البارحة..» ببرود معتاد، كان يُغيِّر وضعية نومه، ويُعدل الغطاء على جسده.

- «نعم يا صديقي.. بالتأكيد.. أنت لا تستطيع أن تترك أعمال الشركات الضخمة التي تمتلكها؛ لتكمل مشروع التخرج.. أيها الصحفي المحترم..» كان يبتسم ابتسامة صفراء ذات معنى.

تقلب مرة أخرى على السرير، وضرب بكفه على جبينه:

- «آآآآآآووه.. لقد نسيت أن ذلك الأبله يريد المشروع في نهاية الشهر القادم..».

ثم غَيَّر لكنته ليصبح كأنه محاضر في جامعة:

- «لن أقبل بالقصص العادية، أريد شيئًا خياليًّا، شيئًا أعظم وأعجب من سور الصين العظيم..».

ثم أضاف بلهجته الاستهزائية:

- «قال سور الصين قال! لا يعلم أني لم أختر هذا التخصص إلا لأنه أسهل من بقية التخصصات.. لم أُخلَق للدراسة يا رجل.. أنا طائر.. أطير في السماء بلا قيود..».

ثم قهقها معًا، وقال الآخر متحديًا:

- «سنرى إلى متى سيصمد جناحك أيها الطائر الكاسر.. لا تطل الوقت، دعنا نبدأ العمل، لا تجعل منا مسخرة لبقية الطلاب.. خاصة.. روفي.. ذلك المتعجرف يريد أن يكون أفضل منا أمام البقية.. هذه حربنا ضده يا شيان.. سألتقي بك في مقهى الطلبة، سأكون في مكاننا المعتاد..».

ثم أغلق الخط، ودسَّ هاتفه في جيب بنطاله الرياضي، هو يعرف شيان من مدة طويلة، خَبِرَه كما خَبِرَ نفسه، هو شاب كسول يحب الرخاء واللهو، شاب لا تحده ضوابط ولا قوانين، هذا ما يقوله دائمًا:

- «خُلقتُ لأكون متمردًا..».

السماء صافية إلا من غيمات صغيرة متناثرة تتخللها، الكل يسير في طريقه بسرعة: البشر، والسيارات، والدرجات النارية، بكين لا تعرف الهدوء أبدًا، بعد حوالي ساعة ونصف من المكالمة؛ توقفت سيارة أجرة أمام «مقهى الطلبة» المحاذي لروضة الأطفال، في مطلع الحي التجاري، وبعد لحظات خرج شابٌ طويل القامة عريض الكتفين، لا يشبه أبناء بكين؛ فملامحه كانت مختلفة، لو رأيته لقلت إنه من أمٍ غير صينية، أو شيءٍ من هذا القبيل، مظهره يوحي بأنه من الشخصيات المتمردة التي لا

ترضخ للأوامر، ويبدو من ملابسه أنه من الذين يحبون أن يكون لهم حضور حيث كانوا، كان كل ما يرتديه متناسقًا، بنطالًا أسود وقميصًا أبيض ناصعًا، ولم ينسَ قبعته السوداء التي يرتديها في كل مكان، فبالرغم من أنه متمرد فإنه ليس فوضويَّ الطبع.

لم يكد يستقر تمامًا على الأرض حتى داهمه شابٌ آخر، مختلفٌ عنه تمامًا؛ فملامحه كانت صينية بحتة، وفيها شيءٌ من الكد؛ كأنه كان قادمًا من الريف، وتصطبغ شخصيته بالطيبة وسلامة الفطرة، كان يرتدي بدلة رياضية صفراء، كما أنه لم يكن يبدو عليه أنه من ميسوري الحال، وبالرغم من اختلافهما فإن العلاقة بينهما كانت متينة جدًّا، كانا صديقين مقربين من بعضهما، بالرغم من شجارهما الدائم؛ فنظرتهما عن الحياة كانت مختلفة تمام الاختلاف، أما مشاعرهما الطيبة تجاه بعضهما كانت عقدة المنتصف التي تجمع بين النقيضين.

كان جيو يرقب صديقه وهو يخرج من السيارة، لم ينتظره ليدخل، خرج من المقهى باتجاهه مسرعًا، ثم كالأسد قفز عليه ليفترسه:

- «إِذَنْ ساعة كاملة حتى تجيب على الهاتف أولًا.. ثم ساعة ونصف أخرى حتى تتفضل علينا بالقدوم.. إن كنا سنسير على منوالك هذا.. فكلية الصحافة.. لن تفتقدنا أبدًا..».

- «جيو.. أيها الصديق العزيز، لا تُعقِّد الأمور، سنتجاوز مشروع التخرج هذا.. لا تقلق هكذا كالأطفال.. اثبت يا رجل، أنا معك.. يا عزيزي سنجد سور الصين.. أقصد مشروعًا عظيمًا..» بصوت مملوء بالاسترحام، وفيه شيء من الكسل أجاب شيان، وتلعثم بضحكاته، شاركه الآخر الضحك:

- «آآآآخ منك.. أيها الوغد.. كيف تستطيع في كل مرة أن تخرج نفسك من بين يدي كما تُخرج الشعرة من العجين؟؟ دعنا لا نضيع الوقت أكثر.. لنعمل قليلًا قبل موعد الغداء».

التفتا لبعضهما بحزم، حتى شيان حاول أن يتظاهر بالاكتراث هذه المرة، ثم دخلا المقهى كأنهما مديرا أعمال، اختارا حيزهما المعتاد بعيدًا عن وجوه المارة، طاولة صغيرة بكرسيين تقع خلف جدار صغير في الطرف الأيمن من المقهى، لا يوجد طاولات بجانب هذه الطاولة، ليس بعدها سوى ممر صغير ضيق يتجه إلى اليسار، يؤدي إلى مكتبة متوسطة الحجم، لكن رفوفها ممتلئة جدًّا بالكتب من مختلف الأحجام، كانت تبدو كغرف العلماء، رائحة ممزوجة بين الغبار والورق، الكثير من الطلبة يأتون لهذا المقهى، ويطلبون هذه الكتب كي تساعدهم في فروضهم وأبحاثهم، جلس جيو وشيان على الطاولة، أخرج جيو أوراقًا صغيرة وقلمين، احتفظ بواحد، وأعطى لشيان الآخر.

شرعا في التفكير من أين سيبدآن البحث؟ وكيف؟ وأي نوع من القصص سيختاران؟ جالا بفكرهما هنا وهناك، حاولا أن يجدا طرف الحبل، لكن لا شيء يدعو للاهتمام، لا توجد قصة ما تثير الحماسة، تحول وجهاهما اللذان كانا جادين قبل نصف ساعة إلى وجهين يائسين، حتى إنَّ استقامة ظهريهما أخذت تنحني للأمام شيئًا فشيئًا، أحدهما يضع يده أسفل ذقنه، والآخر يضع رأسه على ذراعه اليسرى، ويرسم دوائر على ورقة بجانبه بيده الأخرى؛ شفق عليهما صاحب المقهى، وقد كان عجوزًا تكسوه الحكمة، قدم لهما كأسين من شاي الزيزفون، حركته كانت بطيئة بعض الشيء، جرَّ أحد الكراسي المرصوصة

حول طاولة في الناحية الأخرى من طاولتهما، ووضع كرسيه أمام الشابين وجلس بهدوء.

كم يبدو هذا العجوز وقورًا!! بدت ملامح الاستغراب على وجهه، لم يبادر بالسؤال، واكتفى بتلك النظرات المتفحصة في أعين الشابين اليائسة، بعض الناس نظراتهم أعمق من أن تكون سطحية، بعض النظرات تخترق عظام الجمجمة، تجول بين الأفكار والهواجس، بعد أن توصل العجوز لهمهما قال:

«النجاح لا يأتِ بالجلوس على الطاولات.. ومحاولة تجميع الأفكار عبثًا.. النجاح بالبحث الدؤوب.. والعمل الجاد.. أن تعطيه كل وقتك.. وليس سويعات تقضيها على طاولات المقاهي.. النجاح قرار متراكم من معايشة للمشقة.. الأرواح الملتهبة وحدها من تصل..».

شعر الشابان أن كلمات العجوز كقطرات من الماء البارد قد رُشت فوق وجهيهما؛ لتوقظهما من سبات الكسل، جيو بادر بشكر العجوز على نصيحته؛ فهو يؤمن تمام الإيمان أن الوقت الذي يقدمه لصُنع نجاحه لا يكفي، أما شيان بدا كأنه يبحث عن ذاته بعمق، حتى قطع هذا التفكير العميق جيو، واقترح عليه أن ينظرا في الكتب الموجودة في المكتبة التي في آخر الممر أمامهما؛ علَّهما يجدا ضالتهما؛ أومأ برأسه الآخر، وأخذا يحثان السعي نحو المكتبة.

دخلا إليها، وبدآ بالقراءة من هذا الكتاب ومن ذاك، رَكَّزا على الكتب الموجودة في الرف المختص بمجال الإعلام والصحافة، بحثا إلى أن أنهكهما التعب؛ بدأ شيان بالتأفف:

- «لقد تعبت يا هذا، أنا أتضور جوعًا.. حتى إنني لم أتناول وجبة الفطور بشكل جيد.. دعنا نذهب إلى المطعم الموجود في الشارع المقابل، لديهم أطباق لذيذة جدًّا..».

لم يعارض جيو هذه المرة؛ فهو أيضًا قد أنهكه التعب، وبدت عليه علامات الجوع، خرجا مسرعَيْن، أثناء ذلك وهما يقفان على الباب يهمان بالخروج؛ استوقفهما صوت العجوز ثانية الذي كان يجلس خلف طاولة في أول المقهى، ويحمل كتابًا قديمًا في يده، أخذ يلوح بنظارته مشيرًا إليهما:

- «نسيت أن أخبركما أن المعرفة لا تقتصر على الكتب..».

ثم وضع نظارته على أنفه، وتابع قراءته؛ هزَّ الشابان رأسيهما، وابتسما وأيديهما تتحسس بطنيهما، وأسرعا الخطى خروجًا، كانا تمامًا كأطفال الروضة الذين خرجوا من صفوفهم مسرعين عند سماع صوت الجرس يعلن نهاية الدوام، إلا أن الأطفال كانت تتلقفهم أحضان أمهاتهم، أما جيو وشيان كانا يركضان إلى أحضان الطعام، وهما يسيران أمام الروضة حتى يصلا إلى مبتغاهما.

شرد شيان قليلًا، وأبطأ في مشيه، انسلت منه تنهيدة عميقة، وبنبرة مليئة بالألم خاطب صديقه دون أن يلتفت إليه:

- «أتعلم يا جيو، أنا أحسد هؤلاء الأطفال.. فأنا لا أتذكر قط أن لي أمًّا قد انتظرتني على باب الروضة.. أو لعبت معي، أو ما شابه.. لا يوجد في ذاكرتي ذكرى واحدة لبيت، أو عائلة ترتقب عودتي..».

ثم انقطع صوته، وصمتا طويلًا، لم يقاطعه جيو، فقد كان يعلم الألم الذي يقطن في صدر صديقه الذي كابد طويلًا حتى

يصبح شابًّا، وفَضَّلَ السكوت على الكلام؛ حتى لا تظهر ندب أكثر على جدران قلب صديقه، ثم ذهبا لملء بطنيهما، أما الأرواح فلا يعلمان ما الذي سيملؤها.

* * *

الأفواه بدأت بالتثاؤب، أصوات الأطفال لم تعد تُسمع، الأمهات ينادين الصبية للدخول، بدأ الظلام يجتاح المدينة حتى استحكم عليها، وأنوار المنازل بدأت تنطفئ بالتوالي، وفي أحد بيوتات المدينة كانت السيدة فاطمة تجلس متربعة تحت نافذة غرفتها بإسدالها الأحمر الذي يغطي كافة جسدها، فلا يكشف إلا عن وجهها الذي خط عليه الزمن خطوط الخبرة، وكفيها اللذين أخذا نصيبًا لا بأس به من التجاعيد؛ فجعلتها تبدو أكبر من سنها، كانت تنظر إلى القمر في كبد السماء وتتأمله، وترتل بعض الأدعية، وتكرر السور القصيرة التي تستطيع لفظها باللغة العربية التي لا تفقه منها شيئًا، كانت تبتهل وتشكو همها لربها بملامح في غاية الخشوع.

انسكبت دمعات رقراقة من عينيها، لم تتحمل سِرب الذكريات التي زارتها، فلا شيء أقسى من أطياف الذكرى حين تغزو فؤاد مكلوم، الأشياء الجميلة التي يعيشها المرء؛ تبقى أشواكًا في ذاكرته حين تهجره، تُمزق خلاياه، وتؤرقه، وتقلق مضجعه.

الوحدة قاتلة، الوحدة عدو السعادة الأول، وهي من بخرت سعادة السيدة فاطمة كقطرة عذبة في صحراء قاحلة؛ فالسيدة وحيدةٌ تمامًا منذ زمن إلا من أمنيتها اليتيمة، تغرق بها في أحلام يقظتها، وتعوم بين رجاءاتها، وهي تطوف بين الحجيج ملبيةً نداء ربها:

«لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إنّ الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك» آااه ما أجمله من شعور!! وكأنه ماء بارد ينسكب على نار قلبها، فلم يبقَ لها من الدنيا شيء تريده إلا أن يمنَّ الله عليها بأن يحقق لها هذا الحلم، السيدة فاطمة تجرعت حرقة فراق الزوج والولد، والفقر، والحرمان، والاضطهاد، والمعاناة، تعبت من الحياة فلم تتمسك إلا بصورة الكعبة المشرفة التي تزورها كل ليلة، وتخطط للذهاب إليها ألف خطة، وتحاول مرارًا وتكرارًا؛ لكن كل محاولاتها تبوء بالفشل، فكيف لأحدهم أن يذهب إلى بيت الله الحرام، والشيوعيون لا يدعون المسلمين يقومون بأبسط المناسك الإسلامية؟!

وبينما هي تتأرجح بين أفكارها ذهابًا وإيابًا؛ إذ ببابها يُطرَق بطرقات خفيفة؛ استيقظت من أحلام يقظتها، وكفكفت بكُمِّها ما بقي من آثار دموعها، وثنت سجادتها، وحثت الخطى باتجاه الباب، كان قلبها يدق بسرعة، كعادتها حين تسمع صوت الباب مساءً؛ فهي لم تتخلص بعد من آثار صدماتها التي لطالما كانت تأتي إليها متخفية في رداء الليل تزفُّ إليها أخبارًا مؤلمة، وتأخذ في كل مرة منها حبيبًا؛ حتى فرغت الدار من كل أحد عداها، فهذا الباب لم يأتِ لها إلا بالفواجع.

قالت بصوت خافت، ويدها على قلبها:

- «من هناك؟..»

- «افتحي الباب يا خالة..» صدر صوت ناعم من خلف الباب.

شعرت كأن شيئًا ثقيلًا انزاح عن صدرها؛ فهذا الصوت تعرفه جيدًا، إنها مليكة ابنة أختها، لم تنقطع عن زيارتها منذ أن

كانت صغيرة، تأتي دائمًا لترى إذا ما كانت السيدة فاطمة بحاجة إلى شيء ما؛ فهي تشتم منها رائحة أمها، وهي التي ما عرفت معنى الأم إلا من خالتها السيدة فاطمة، فاليُتم كان مصيرها وقدرها منذ سنواتها الأولى في هذه الحياة.

دخلت فتاة مبتسمة تسدل على رأسها حجابًا ورديًّا عليه بعض الورود المرسومة باللون الأحمر، تحمل في يدها حقيبة مليئة بالأوراق، ملامح جميلة مرهقة تعلو وجهها، وابتسامة صادقه ترتسم على ثغرها. عندما التقت عينيها بعيني السيدة فاطمة الدامعتين؛ اختفت ابتسامتها، وتجعدت ملامحها، قد بدا لها تغيُّر في وجه خالتها.

«أم أنكِ عدت للبكاء كعادتكِ؟..» سألتها بقلق.

صمتت الأخرى لوهلة في حزن عميق، ثم قالت:

- «لم أعد أحتمل يا بنتي، فالأيام تزداد سوادًا في عيني.. لم يبقَ لدي شيء.. لا زوج.. ولا ولد.. ونفسي تتوق إلى بيت الله الحرام.. وكل طلباتي التي قدمتها من ثماني عشرة سنة للحصول على جواز سفر باءت بالفشل، وحتى إن حصلت عليه فلن أستطيع الذهاب.. فكما تعلمين السلطات الصينية تمنع المسلمين من أداء فريضة الحج لمن هم دون الستين عامًا.. فكيف لي أن أجد السعادة بربك يا بنتي؟ كيف؟..».

ثم انقطعت أنفاسها، وأجهشت بالبكاء؛ احتضنتها مليكة، وهي الأخرى تَسَلَّلَ الدمع إلى مقلتيها بالرغم من محاولتها العابثة بأن تكون قوية أمام خالتها؛ لتسندها وتقوي من جأشها، لكن في بلد كهذا! هيهات!

هنا يبكي الحجر فضلًا عن البشر، أما مليكة فلم تكن فتاة عادية؛ كانت أقوى من أن تقف عاجزة مستسلمة أمام الاستبداد الشيوعي، سبحت بفكرها للحظات، والسيدة فاطمة ما زالت متشبثة بها كأنها تعوض ما بقي من أمومتها فيها، ثوانٍ حتى عادت من رحلة شرودها القصيرة، وبدت ملامح الجدية على وجهها الفتَّان؛ كفكفت دموع خالتها، طابعةً على جبينها قبلة صغيرة:

«مع السلامة يا خالة.. سآتي للاطمئنان عليك في الغد.. لدي بعض الأمور لأنجزها الآن، ثم سأعود للبيت.. إذا احتجتِ لأمرٍ ما؛ فلا تترددي بالاتصال عليَّ..» والتفتت مغادرة.

تبسمت السيدة، وأردفت قائلة:

- «رضي الله عنكِ يا بنتي، أنت لم تدعيني أحتاج لشيء حتى أخبركِ به..».

وافترقتا.. لتخلد المرأة إلى النوم، أو كما زعمت.. فالنوم والهموم لا يجتمعان.. لكن الرجاء لا ينقطع بالله، وانصرفت الأخرى إلى وجهتها التي لم تُصَرِّح عنها لخالتها.

خرجت مليكة من الباب وهي تسير بخطى منتظمة، بدت في بادئ الأمر وكأنها تسير باتجاه بيت أخيها الذي تسكن عنده؛ فهو من رباها منذ كانت صغيرة، وهو عندها بمنزلة الأب والمربي، يرعى شؤونها، ولا يبخل عليها بخير قط، وهو من زرع فيها حب العلم، والسعي الدؤوب، وكبَّرها حتى أصبحت باحثة في الطب الأيغوري، وتتطلع للتقدم في هذا العلم.

سارت مليكة في طريق العودة، لكن في المنتصف توقفت، كان الظلام دامسًا، كل الذين يسيرون في الطريق يسرعون إلى

بيوتهم، الإرهاق يكسو أجسادهم العاملة طوال النهار، أخذت تنظر مليكة في الأرجاء بعناية، التفتت يمينًا ويسارًا دون أن تثير الانتباه، ثم انسلت بهدوء إلى زقاق صغير على الجهة اليمنى منها، واختفت بين البيوت والأزقة، توارت عن الأنظار، وتنقلت من زقاق إلى آخر؛ حتى وصلت إلى بيتٍ صغير، كانت نوافذه ضيقة ومغلقة، تغطيها من الداخل ستائر غليظة؛ فلا يخرج منها سوى ضوء خافت كأنه ضوء فانوس، أو ما شابه.

رفعت أناملها وطرقت الباب بخفة، ثلاث طرقات مُشَكِّلةً نغمة موسيقية، طرقتان متتابعتان، ثم طرقة أخرى بعد؛ تنحت جانبًا، ولم تعاود الطرق، ما هي إلا لحظات حتى فُتح الباب، ولكن ما من أحد يخرج منه أو يظهر، لم تدخل مباشرة، انتظرت قليلًا، ثم دخلت بخفة، كان البيت مظلمًا، وأبواب الغرف التي فيه كلها مؤصدة، تتسرب منها أصوات مهموسة كأنها أزيز نحل، تعدت كل الغرف حتى وصلت إلى الأخيرة، كان البابُ شبهَ مفتوح، فيه فُرجة صغيرة، يخرج ضوء خافت من خلالها، فلا تكتمل رؤية ما بداخل الحجرة، جمعت أناملها في قبضة، وطرقت بشكل خفيف:

- «هل يمكنني الدخول يا أبا محمد؟».

رد عليها الآخر بصوت مهيب:

- «تفضلي يا بنتي..».

سرت في جسمها رعشة تصيبها في كل مرة تأتي فيها إلى هذا المكان، وكأن هذا المكان وهذا الغرفة بالتحديد تُهيِّج مشاعرها، وتحرك كل ما سكن بقلبها، دخلت على استحياء، ثم رفعت نظرها؛ فبدا لها رجل كبير في السن أقرب إلى الشيب منه إلى الشباب، لحيته كانت بيضاء عدا بعض الشعرات المتشبثات بالسواد، كان ضخم الجثة، مهيب الهيئة، يجلس على الأرض، متربعًا على رجليه، يلبس ثوبًا أبيض، وعمامة بيضاء، كأنه ملَك نزل من السماء.

بالرغم من المهابة التي يستشعِرها من ينظر إليه؛ فإنك إذا تأملت وجهه رأيت الرحمة مكتوبة بين عينيه، وسكينة تسري في ملامح وجهه، وعن يمينه وشماله رجُلان لا يختلفان عنه في الهيئة إلا أنهما يبدوان أصغر سنًّا، أشار إليها كبيرهم بالجلوس، تقدمت خطوتين حتى وصلت إلى منتصف الغرفة، ثم جلست، بادرت بالكلام قبل أن يبادرها بالسؤال. قالت بصوت كله رجاء:

- «يا أبا محمد، إن لي عندك اليوم طلبًا أستحلفك بالله ألَّا ترده.. وانظر إليه بعين الاعتبار»، جمع تركيزه كله في كلامها، ثم أكملت:

- «إن خالتي.. فاطمة.. أم عبد الله.. قد رغبت عن الدنيا وما فيها.. ولم يبقَ لها بها حاجة.. وإن لها طلبًا أوصدت كل الأبواب أمامه.. وهو أن تذهب إلى بيت الله الحرام.. وهي كما تعلم تتابع أمور جواز السفر من سنين طويلة للتمكن من الذهاب.. ولا يَخفَى عليك.. يا شيخنا.. ما نحن فيه من قلة حيلة أمام هؤلاء الدمويين المستبدين.. فَأْذَنْ لي بالذهاب معها.. وقد..».

قاطعها أبو محمد بنبرة شديدة دون أن يفسح لها مجالًا للانتهاء:

- «كأنك تريدين أن تذهبي عبر التهريب عن طريق باكستان؟»

أومأت برأسها.. أي نعم.. وقد مُلئت تعابير وجهها بالخوف والرجاء؛ جمع الآخر كفيه محاولًا التخفيف من حدة غضبه، وأحنى رأسه، ثم قال:

- «يا مليكة نحن نقدر تعاطفك مع خالتكِ.. لكن السفر عبر باكستان شيء لا تطيقه السيدة فاطمة.. ولا حتى أنتِ.. وأنتِ تعرفين أنكِ لن تستطيعي العودة إلى تركستان أبدًا بعد ذلك، وتركستان بحاجة لوجود أمثالكِ فيها..».

لم تكمل الفتاة الاستماع إلى ما يريد قوله أبو محمد؛ خَرَّتْ على الأرض باكية، وخَرَّتْ معها آمالها؛ فقد سئمت المسكينة من رؤية خالتها تتقطع من الألم أمام عينيها كل يوم، فهذا أقل ما تواسيها به، بكت دون وعي، وتحسرت على وضعها، وحالها، وحال بلادها، بكت بدلًا من كل مظلوم من أهلها.

لم يستطع كل من في الغرفة التحمل؛ انسلت الدموع الحارة من أعينهم بصمت؛ فكل ما عاشته مليكة، وعاشته السيدة فاطمة يعيشه كل من يقطن في هذه الأرض المنسية، لم تنتظر ردًّا ولا مواساة؛ خرجت راكضة تاركةً أبا محمد وصاحبيه في حزنهم، وفضلت أن تعيش حزنها بمفردها، وقد شعرت بأن الأمل الصغير الذي يسكن قلبها قد انطفأ، تمامًا كما هي، منطفئة هذه المدينة الجميلة السليبة (كاشغر).

* * *

المطر يهطل بغزارة، البرق يلمع كأنه سيوف مسلولة تلوح في السماء، وصوت الرعد قد تجلجل في الأرجاء، كأن الجبال تتقاذف بصدى الرعود؛ مما أضاف للمكان هيبة في نفوس الذي يمرون به، بالرغم من ذلك فهذه السلسلة الجبلية مفروشة باللون الأخضر الفتان، نحن الآن في الجبل الكبير، من الجنوب تستقبلك باكستان، ومن الشمال تظهر أرض أشبه ما تكون بعروس في ليلة عرسها، لكن ثوبها الأبيض يختلط بلون الدماء؛ فما أكثر الذئاب التي تسرح وتمرح على أرض تركستان الشرقية، تعبث بجمالها الفتان كيفما شاءت دون رقيب أو حسيب، والجبل الكبير نقطة المنتصف، هنا الأمان الشاق، هنا الحرية وكدُّ الحياة، هنا أسر الجبل تعيش مشقة العيش، لكنها لا تخضع للأعداء، هنا مزيج بين سرور العبادة وألم الغربة، هنا الذين فضلوا رعاية الأغنام، ونسج الصوف، ودبغ الجلود على الركوع للملحد الذي لا يعرف الله، هنا رجال الله الذين يعدون كل عدة؛ للتخفيف عن إخوانهم في داخل تركستان.

هتف هاتف من بعيد:

- «أين القائد مسلم باتور؟».

كنتُ حينها قد فرغتُ من نافلة صلاة المغرب بعد أن أمَّنا الشيخ يحيى خان الملقب بشيخ الجبل، شيخ كهل قضى عمره محاربًا شهمًا؛ حتى أخذ منه العجز مأخذًا، لكن روحه شابة يانعة، وهو الأب الروحي والمربي لكل الذين اتخذوا من الجبل ملجأ لدينهم وعقيدتهم؛ خوفًا من أن يسممها بنو الأصفر ذوو الرايات الحمراء بالقوة.

كان بجانبي ساعدي الأيمن سليمان تركستاني، نظر إليَّ ثم نهض قبل أن آمره لينظر ما الأمر؛ خرج من المسجد الذي كان

بيتًا لعائلة الشيخ يحيى خان، ثم جَعل منه مسجدًا، واتخذ هو وأسرته منزلًا مجاورًا له، كان الرجال مجتمعين عند عتبة المسجد.

- «ماذا هناك يا أخوة؟» سأل سليمان.

- «إنه منصور كوتشاري يا سيدي.. جاء ومعه شاب لا نعرفه.. يطلب القائد مسلم.. يبدو أن هنالك أمرًا هامًّا..» بادر أحد الشبان بالإجابة.

سار منصور كوتشاري وشاب آخر صعودًا؛ حتى وصلا إلى المسجد، كنت قد انتهيت من ورد الذكر عندما دخل الرجلان، وفور رؤيتي لمنصور وثبت إليه معانقًا:

- «آه.. يا صديق المواقف الصعبة.. يا أخ الجهاد والنضال.. لقد اشتقنا إليك كثيرًا.. تأخرت علينا هذه المرة..».

- «إنه الواجب يا مسلم.. وإلا فأنت تعلم أننا لا نطيق الحياة بعيدًا عن جبلنا الكبير..».

تنحيت جانبًا من جسده، لكن يدي ظلت ممسكة بيده، وربتُّ بالأخرى على كتفه:

- «تلبية الواجب.. واجبة يا أخي..».

- «هو ذاك..».

- «كيف سارت معك الأمور في كاشغر؟».

- «يا صديقي.. كل ما في تركستان حزين: المدن.. القرى.. البيوت.. الأزقة.. الأسواق.. البشر، وكل شيء..».

- «سمعنا أن مبانيها قد تطاولت.. وفُتِحَت المعاهد.. والجامعات..».

- «إنه السم المدسوس في العسل..».

- «شيء من الأفيون إِذَنْ..».

- «بالضبط..».

تبسمت في أسى، واعتصرت كف صديقي الغائب، كأنني أشد أزره، وأنا في أشد الحاجة إلى أن يشد هو أزري، نظرت إليه علَّي أمسح شوق السنين في عينيه، لكنه هو من أذاب جليد الحنين في قلبي، كيف لا؟؟ وهو لي الصديق الصدوق، تنبَّهت للشاب الذي أمامه، وحررت يدي بسرعة من كف منصور مبادرًا بالمصافحة، واعتذرت في خجل:

- «المعذرة يا أخي.. شغلني لقاء منصور عنك.. فقد مضى وقت طويل على لقائه..».

قال بلباقة:

- «لا داعي للاعتذار.. فمثلك لا يعتذر لمثلي أيها القائد مسلم.. فقد بلغ صيتك عندنا كل أذن.. ونحن فخورون بك جدًّا.. لم أكلَّ من سماع القصص التي حكاها لي الأخ منصور عنك طوال السفر».

- «أستغفر الله.. نحن سواسية أيها الشاب الطيب.. تفضلا بالدخول؛ سيلقى الشيخ يحيى خان على مسامع أبناء الجبل بعض المواعظ بعد صلاة العشاء.. حتى ترق قلوبهم.. وتشحذ هممهم.. ارتاحا من عناء السفر قليلًا.. ثم انضما إلينا..».

أَذَّن المؤذن: «الله أكبر.. الله أكبر» كأنه يخيط الجروح، ويداوي أمراض النفوس، كأنه الماء البارد يُراق على صحراء الحياة؛ فتزهر بها الأرواح، «الله أكبر.. الله أكبر» راحة للمتعبين، امتلاء للأجواف الفارغة، «.. لا إله إلا الله..» دستور حياة، وقانون دولة، «.. لا إله إلا الله..» أمان للخائفين، ووعد للعارفين، «.. أشهد أن محمدًا رسول الله..» القدوة والأسوة، «أشهد أن محمدًا رسول الله..» الرحمة والعظمة، «.. حي على الصلاة..» الشرعة المنظمة، والدقة المتناهية، «.. حي على الفلاح..» الشمول والتمام، «.. الله أكبر.. الله أكبر..» تثبيت للقلوب والأقدام، «.. لا إله إلا الله..» السعادة الأبدية اللامتناهية.

أسرع الجميع نحو المسجد صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً، فالجميع هنا لا يفوت كلمات شيخ الجبل، الكل هنا نهِمٌ على موائد الغذاء الروحي، أُقيمت الصلاة، المنظر مهيب، صفوف منظمة: الرجال، ثم الصبية، ثم النساء، حتى إنك تتساءل أهؤلاء جاؤوا من عصر الصحابة؟؟ ثم قُضيت الصلاة، وتنفل الناس، ثم عادوا إلى صفوفهم، يجلسون كأن على رؤوسهم الطير، اعتلى الشيخ يحيى خان كرسيًّا خشبيًّا عتيقًا، أخذ نفسًا عميقًا، وتلفت بين أعين الناس كأنه يتفقدهم، ويتعهد هممهم، ثم صدح قائلًا:

- «طوبى لنا وألف طوبى كيف لا؟ وقد أعطانا رسولنا الكريم قبل آلاف السنين والأعوام مفاتيح الفرج، فقال - □ -: «إن من ورائكم أيامًا، الصبر.. الصبر فيهن كقبضٍ على الجمر، للعامل فيها أجر خمسين، قالوا: يا رسول الله، أجر خمسين منهم، أو خمسين منا؟؟ قال: خمسين منكم» فالصبر يا إخوة الدين هو المفتاح الأول.. ثم التمسك بالمنهاج الإلهي، والقبض عليه مهما حاول أعداء الله أن يفلتوه من أيدينا.. نحن المسلمون يا أخوة.. نحن الذين سلمنا لله أمورنا.. وارتضينا كتابه دستورًا لنا.. نحن خلفاء الله في الأرض.. هذه الأرض التي كانت لنا اختبارًا قاسيًا.. وكنا فيها عابري سبيل.. الوطن هناك يا إخوتي »

وأشار بيده إلى الأعلى، وصمت برهة، وعاود قائلًا:

- «السماء.. الجنة من حيث أُخرِج أبوينا في القدم.. عائدين إلى ذلك المكان الجميل.. هناك أيها الأحبة.. لا الصينيون يبطشون.. ولا الروس يتعاونون.. ولا إخوة يتخاذلون.. هناك الأمان والأمن.. السكينة والسعادة.. هناك الهناء الأزلي.. هناك الله.. الله الذي يرى حالنا الآن، نعتصم في الجبال خوفًا على إسلامنا.. هذه هي النفسية التي يجب أن نعيش بها.. حاربوا اليأس في قلوبكم.. فالله مولاكم، نعم المولى، ونعم النصير..».

أكمل الشيخ موعظته، تأثر الناس، وخرجوا من المسجد بغير ما دخلوا عليه، تستطيع أن تراهم ممتلئين أملًا، وعزمًا، وإيمانًا. ما هي إلا فترة قصير حيث صفا المسجد إلا مني ومن الشيخ يحيى خان، وعن يميني منصور كوتشاري، وعن يمينه الشاب الذي أتى به، وعن شمالي سليمان تركستاني، التفتُّ شمالًا، وهمستُ في أذن سليمان:

- «جَهِّزْ لنا شيئًا نقدمه للضيف..».

انصرف من ساعته، وأخذت الشيخ والرجلين إلى بيت الشباب، البيت الذي أقيم فيه مع الشباب الذين لا يملكون عائلات في الجبل، دخلنا لغرفة خالية نسبيًّا من الأثاث، وسادات متفرقة على سجادتين من الصوف، رائحة المسك تفوح في الغرفة،

ورفان فوق بعضهما معلقان على الجدار الأيمن من الغرفة عليهما بعض الكتب.

في الجهة اليسرى كوة محفورة في الجدار فيها سجادات للصلاة مرصوصة فوق بعضها، جلسنا في شبه دائرة، تكلم منصور كوتشاري أولًا:

- «لأُعرفكم.. هذا عبد الحق خوجة.. شاب مناضل تتطلع نفسه للحرية والجهاد.. ليس كغيره من الشباب الذين رضوا بالأمر الواقع وخنعوا له.. كان عيني في كاشغر والمدن المجاورة لوقت طويل.. كان عونًا لنا بعد الله في إنجاز الكثير من المهمات هناك..».

في الحقيقة أعجبت كثيرًا بعبد الحق، تذكرت تلك الآية في القرآن التي تبين كيف أن المؤمنين تظهر سيماهم في وجوههم، كم نفتقد إلى الشباب المتطلع للغد الواعد! كم تصلني من أخبار كأنها مسامير تنهش في لحمي عن كاشغر وبقية المدن التركستانية القابعة تحت سطوة الاحتلال! ما أقبح الاحتلال الذي يذيب معتقداتك، ويلوكها في فمه، ثم يمجها في مهب الريح!! يحاول طمس معالم الحياة فيك، يريدك أن تعيش كحيوان تلهث خلف الملذات.. تأكل، وتشرب، وتضاجع النساء، ثم ماذا؟ لا شيء.. تموت.. تذهب كأنك لم تأتِ أصلًا. ما هذا العبث؟

سبحت في أفكاري كثيرًا حتى قاطعتني روائح الطعام، دخل سليمان، يا لهذا الطباخ الماهر!! وضع الأطباق في المنتصف (المنتو) خبز محشو باللحم، و(اللغمن) معكرونة مصنوعة باليد، ومرق فيه لحم الضأن، إنها أطباق بخارية تذكرنا بأصولنا وأرضنا التي يحاولون طمسها عبثًا. وأنا أشتم رائحة أمي بين هذه الأطعمة، أمي التي ذُبِحَتْ كالنعاج أمام عيني؛ لا أستطيع أن أوقف دموعي كلما ذكرتها، ولا أن أخمد نيران قلبي، «لبيك أمي.. لبيك تركستان..».

قطعتُ حبل أفكاري عنوة، وكأني أجر نفسي جرًّا للواقع؛ فلا أريد أن أفسد مجلس الضيافة؛ أخفيت حزني، ولا أعلم هل انفلت مني خفية فبدا لمن حولي أم لا؟ رحبت بعبد الحق مجددًا، وأشرت له ليأكل، أخذت قطعة منتو وقدمتها لمنصور، وقلت مداعبًا:

- «تفضل كُلْ من أكلتِك المفضلة يا منصور.. أم أنك أكلت منها في كاشغر إلى حد الشبع؟.. يخيل لي ألَّا أحد يستطيع طهوها كسليمان..»

التفتُّ لسليمان الشاب الخلوق الحَيِيِّ، توردت وجنتاه خجلًا، لكم أحب هذا الشاب! أجاب منصور بجديته المعتادة، وهو ينظر إليَّ:

- «نعم، أكلت منها في كاشغر وغيرها من مدن تركستان طوال طريق سفري.. لتعلم يا مسلم أن العنصرية الصينية لم تستطع أن تقتل عاداتنا كلها؛ لكن الأمور هناك تسير بلا روح.. قل: إنك تسير في حياتك مرغمًا على الحياة لا محبًّا لها.. أشبه بالآلة.. ستكون سعيدًا جدًّا إن أديت عبادة اليوم خلسة، ولم تُصَبْ بأذى.. إن تلوت آيات قليلة، ولم تترقبك أعين الجواسيس ليشوا بك، ويكسبوا المال..».

قاطعه الشيخ يحيى خان قائلًا:

- «لا تكن عجولًا يا بني، إنما النصر صبر ساعة.. هو آتٍ لا محالة بإذن الله..».

غمغم الجميع: «إن شاء الله..».

فَرغت أواني الطعام، وتثاقلت الأجساد، ذلك يشرب الماء يُذهب حر التوابل، وذلك يمسح فمه من أثر الطعام. اتكأ الرجال على الحائط بعد حمد الله على النعمة، والشكر لنا على الاستضافة، وعبارات الترحيب، ثم انضممت إليهم بعد أن انتهيت من توضيب المكان، صوب عبد الحق خوجة نظره إليَّ وقال:

- «جئت إليك برسالة يا سيدي..».

- «مِمَّن؟»

- «من أبي محمد.. يريد منكم أن تُفعلوا مجموعة نبض الإسلام بشكل أكبر.. فالمساجد حركتها مشلولة بشكل شبه تام.. ونحن بحاجة للمزيد من البيوت التي نجعلها مساجد خفية عن السلطات الصينية.. فهم يسمحون بالصلاة لمن هم فوق السبعين فقط.. حتى طبعات المصاحف شبه معدومة.. وكتب العلم.. المدن خاوية يا سيدي.. ونحن نعول عليكم بالكثير..».

خرجت من أعماقي تنهيدة بدون وعي، همهمت في نفسي: تفضل يا مسلم المزيد من السياخ التي تُغرز في لحمك، فكرت مليًّا، ونظرت إلى شيخي راجيًا:

- «ما العمل؟ أرشدني لشيء.. الوضع لا يُطاق.. رجال المجموعة أعدادهم قلَّت بشكل مخيف.. فالواحد منهم إما كُشف أمره فهو متخفٍ في الشعاب، أو وقع تحت قبضة الأسر؛ فجلده يُشوى بالسياط.. ومنهم من لقي حتفه، وترك الواجب على أعناقنا.. والله بِتُّ في حيرة من أمري يا شيخ الجبل..».

- «خذ ذلك المصحف الذي على الرف..».

نهضت من فوري لأتناوله من مكانه، أشار بيده لأعطيه إياه؛ فناولته، ثم قلب فيه بعض الورقات، ورده إليَّ مجددًا:

- «اقرأ آخر آية في سورة العنكبوت..».

قلبت نظري في الصفحة المفتوحة باحثًا عن الآية، وأخذت أقرأها بصمت، صاح بي:

- «بصوت مرتفع.. يا مسلم..» ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

رفع سبابته نحوي معنفًا:

- «أتشك في وعد الله يا ولد؟؟؟»

«معاذ الله!!» قلتها وقلبي يرتجف خوفًا.

- «إِذَنْ جاهد ليهديك.. الجهاد مأخوذ من بذل قصارى الجهد يا ولدي..».

أكملنا ليلتنا تلك بحوار عن أهمية أن تكون مؤمنًا بما تقوم به، مؤمنًا بالله الذي يدعمك من السماء، ويرى جدك في رفع

الظلم، الله الذي حَرَّمَ الظلم على نفسه يعينك على كل ظالم متى رأى منك الصدق في ذلك، ثم ذهب الجميع ليغطوا في نوم عميق، الشيخ في منزله، ونحن في بيت الشباب، الجميع التصقت أعينهم بأجفانهم، وأنا تعلقت في السقف الذي فوقي.

* * *

شيان وجيو يسيران بعد غروب الشمس بغير هدى في شارع طويل، عليهما علامات الإرهاق والضجر، يبدوان تَعِبَيْنِ من كثرة البحث اللامجدي، صاح شيان بكل صوته:

- «لعناتي على مشروع التخرج هذا..».

- «إنك ترفض كل قصة.. لا يعجبك شيء.. يا عزيزي.. ماذا تريد؟ قُلْ لي..» زفر بغضب، ثم أردف:

- «إما أن تأتي بقصتك الأسطورية التي لن يأتي أحد بمثلها، وإما أن تقبل بقصصي الاعتيادية التي لا تصلح حتى أن تكون قصص ما قبل النوم للأطفال..».

- «لتعلم يا صديقي أنني لا أقبل أن يُكتب اسمي على عمل مُبتدئ.. أريد قصة مثيرة.. حبكة لا تخطر على بال.. شيئًا حقيقيًّا لكنه أشبه بأسطورة.. ثم أني..».

قطع حديثه، وتأمل بعيدًا، كأنه يدقق في شيء بعيد، يضع يده اليمنى كمظلة فوق عينيه، يلتصق بالجدار بخفة، ويسرق النظر في الشارع الفرعي، لم يكن مضيئًا بما يكفي؛ شاهد طيفًا يدخل إليه، عَمَّ الصمت، واستمر حتى حاول جيو الاستفسار، إلا أن شيان قاطع مداخلته بصوت مهموس أشبه بفحيح:

- «انتظر.. توقف جيو، توقف..».

بنفس النبرة قال جيو:

- «ماذا هناك؟».

- «اششش.. اصمت..».

ظل شيان محدقًا في الشارع الضيق، يركز بصره فيه ويتفحصه، وجيو يقلب نظره بين شيان والجهة التي يصوب نظره نحوها، ثم أطبق شيان فكيه بقوة، وصك أسنانه بغضب، لم يتكلم بشيء بعدها، ظل هائمًا لبرهة، وعاودا السير مجددًا، ظل شيان يسبح في البعيد بين أمواج أفكاره، وجيو يسبح في حيرته من صديقه الغريب.

في صباح اليوم التالي شيان ذهب مبكرًا إلى الجامعة، هناك لقاء دوري يقيمه أساتذة الجامعة مع الطلاب؛ ليروا إذا ما كانوا بحاجة إلى مساعدة، أو أن هناك بعض الأسئلة.

في الحقيقة لا يفوت الطلاب هذه الفرصة، يحضر الجميع، يحاولون جمع أكبر كمية من الذكريات مع بعضهم؛ ربما تكون هذه اللقاءات الأخيرة، من يدري كيف ستطيش بهم أقدارهم؟ وعلى أي الشواطئ سترسى بهم السنين؟

شيان يمشي يبحث عن أحدهم، ويتفحص الأوجه، يلقي التحية كواجب ليس إلا، وذلك إذا ما التقت عيناه بأحد الزملاء،

لكنه يقلب بصره هنا وهناك، يبحث عنها.. نعم، كانت هي، هي من وجدها ليلة البارحة تدخل إلى ذلك المقهى، كان يبدو أنها تتخفى عن أعين الناس، لباسها للمعطف الطويل مع أن الجو لم يكن باردًا إلى ذلك الحد، ذلك المقهى ليس مخصصًا للعربدة، صحيح، لكن شيئًا ما في شيان قد ثار، أحس حينها أن قلبه لا ينبض بقوة فقط، بل كان يقذف برأسه على أضلاع صدره، كأن شيئًا في داخله يتهشم.

«ها هي أميرة الظل» قال في نفسه، ثم انتظر حتى تنفضَّ الفتيات من حولها، كنَّ يتبادلن القُبل والمصافحة والضحكات، اختفت الفتيات من حولها، وكل واحدة منهنَّ ذهبت في حال سبيلها، وجد شيان الفرصة المناسبة، وانقض على الفتاة ممسكًا كتفها بقوة، وأدارها، وجهه الغاضب، وملامحه المنكمشة، وكل ما كان فيه يوحي بأنه جاء ليقاتل.

التفتت الفتاة بهلع، ثم استدارت بكامل جسمها، عيناها العسليتان، وشعرها البني المنساب على كتفيها كالقهوة المصبوبة، وجهها الصافي، وجنتاها المتوردتان كوردة برية، شفتاها كثمرة كرزة مفلوقة، كل هذا لم يشفع لها ثورته العنيفة ضدها:

- «أين كنتِ البارحة.. ليلك؟..»

- «في المنزل بالطبع.. أين سأكون برأيك؟..».

- «لا أدري لِمَ تحبين حياة الغموض؟ لِمَ تكذبين مرارًا؟ تنكرين ما تفعلين.. تتخفين كخفاش في الظلام.. أنتِ تثيرين أعصابي جدًّا..».

- «لا تتصرف كأنك أحد أبويَّ شيان.. أنا أعمل ما أريد.. أيضًا كف عن ملاحقتي.. لا تحاول العبث معي، أو الاقتراب مني.. العب مع أخريات..».

لم تعطه مجالًا حتى للرد، لفظت أنفاسها الغاضبة الممزوجة بكمية من التوتر التي لم تنجح ليلك في إخفائها، استدارت ومضت قدمًا راكضة، توقف في مكانه مجمدًا، صحيح هو لم يكن ليسمح لأحد بالتطاول عليه، أو أن يرفع صوته، أو يصرخ؛ لطالما كان متعجرفًا لا يمكن لكبريائه أن يُخدش، لكنه يفقد هيبته أمامها، كثيرًا ما يفكر لِمَ تأخذ من اهتمامه؟ ما دخله هو أين تذهب؟ أين تعمل؟ ما يهمه من تفاصيل حياتها الغامضة؟ يفكر دائمًا أن يصرف النظر عنها، وأن يجد فتيات أكثر مرحًا، «بكين» تعج بهنَّ عجًّا، لكن شيئًا ما.. سرًّا خفيًّا.. يجعلها أثيرة باهتمامه، ربما غموضها؟ أو ربما حزنها العميق الذي لا يَريم عن وجهها؟ أو لأن كليهما كانا يذهبان إلى المدرسة بدون مرافقة أحد؟ ربما ليس لها عائلة مثله؟ قد تكون عُوملت بقسوة في صغرها؟ لطالما مرت السنوات لهما معًا؛ لكنها ظلت هي.. هي لم تتغير، قليلة الكلام، منطوية على نفسها، متقوقعة.

رآها أول مرة في الصف الخامس الابتدائي، كانت تختبئ خلف المدرسة ثم تبكي، أغلب الأيام كانت تفعل ذلك، كانت تتعامل مع بقية الطلاب كأعداء، عنيفة جدًّا في الرد عليهم، لا تسمح لأحد بأن يبني بينه وبينها علاقة صداقة، أو حتى زمالة تأخذ طابع المجاملة.

شيان كان يحاول الاقتراب منها في بعض الأحيان ولم يفلح، لم يحاول فعل ذلك لأحد كما فعل معها، لم تقبل صداقته، لكن

نظراتها لم تكن عدائية تجاهه، تبدو كأسيرة جميلة تنتظر من ينقذها.. هذا كان انطباعه عنها، مع مرور الوقت بدأت ليلك تُحسِّن الكلام والتعامل مع الآخرين قليلًا، لكن طبعها الحذر لم يتغير، يكاد لا يكون لها أي صديق، أو هو كذلك بالفعل، اعتاد الجميع عليها بهذا الطبع، صداقتها ليست أكثر من ابتسامة وإلقاء تحية.

تشير الساعة إلى الثامنة الآن، موعد اجتماع الطلبة مع أساتذتهم، ستتم مناقشة الخطوات الأولى في سير المشاريع، كيف شرعوا بها؟ هل يبلون حسنًا؟ هل هناك أمر ما صعب عليهم؟ كان الجميع يسيرون أسرابًا إلى القاعة، المدرجات بدأت تمتلئ، الجميع يتفاخر بما لديه، وبما قد أنجزه، روفي المغرور وأصدقاؤه المقربون منه يتحدون أن يكون أحدًا أفضل منهم.

بدأ المشرف يستمع للطلبة الذين يستعرضون أعمالهم المنجزة من بداية العام الدراسي، لم يبقَ لهم إلا اللمسات الأخيرة، ينتهي أحدهم فيبدأ الآخر، حتى استوقف المشرف منظر شيان الذي لا يحرك ساكنًا، يجلس في ركن قريب من النافذة، عيناه تسبحان في الفناء؛ فاجأه بصوت عالٍ:

- «يثيرني فضول جامح حول ما سيكون عليه مشروعك.. شيان..».

نفض غيوم الشرود من رأسه، والتفت نحو مصدر الصوت:

- «عفوًا لم أسمع..» ضَيَّقَ عينيه وهو ينظر نحوه.

- «بما أنك لست قلقًا، يبدو أن عملك كان دسمًا، هلَّا أبديت بعضًا مما توصلت إليه؟»

صوته كان مستهترًا، لا يدري شيان لِمَ لا يرتاح لهذا الأستاذ؟ ربما فضوله الزائد؟ أو لتحديه له؟ أو لأنه يتصيد أخطاءه؟ لنقل: كلها معًا، النتيجة واحدة. هذا ما قاله شيان في نفسه، ثم قال بصوت مسموع:

- «في الحقيقة لدي شيء لا يتخيله أحد، لكني لا أريد ألَّا تحضركم الحماسة في يوم المناقشة يا حضرة الأستاذ.. أُفَضِّلُ أن أكمله أولًا.. اعذرني..» ثم ابتسم بلطف، هو نفسه لا يعرف كيف أجاد تمثيل هذا المشهد.

في الممر وبينما شيان يمشي ويفكر فيما قاله، ويشكر الحظ الذي جعل الليلة الأولى ممطرة؛ فتصيب جيو بنزلة برد، ذلك الأحمق لا يجيد الكذب، كانا سينفضحان، الثنائي الفاشل الذي لم يعمل شيئًا حتى الآن، والجميع على وشك الانتهاء، يا لهما من تعيسَيْن! وبينما هو يحاول إيجاد حل للمشكلة العويصة؛ ارتطم به شيء ما؛ استدار لينظر:

- «آه، آسف يا صديق.. لم أَرَكْ..»، بابتسامة خبيثة.

- «هذا واضح روفي.. أراه في عينيك طبعًا..».

- «خُذ الأمور على منحى إيجابي يا صديق.. على العموم سمعت بأن مشروعك سيكون خرافيًّا.. آمل أنها ليست دعابة منك..».

- «ليس عليك القلق من أجلي.. اقلق من أجل نفسك..».

- «لا تكن واثقًا.. على كلٍ أبناء العائلات العريقة لا يتوجب عليهم القلق حول أمور كهذه.. بخلاف أبناء الـ..».

صخرة صلبة سدت فمه؛ لم يكمل، لم يستطع حتى تصديق ما حدث، كان يلفظ الدم من ثغره، يمسح قطرات سالت على ذقنه وأسفل فمه، تلوَّث كمُّ قميصه ببقع من الدم، كان يحاول استجماع بعض الأكسجين، واستجماع كبريائه الذي تناثر أمام حشود الطلبة في الرواق، الكل كان منذهلًا، لا أحد يجرء على التلفظ بسوء على روفي فضلًا عن ضربه، ظلت يد شيان بقبضتها في الهواء لفترة، حتى شيان نفسه لا يعرف كيف حدث هذا، كان استهتار روفي به قد أثار ثورته، لا يقبل بأن يمس أحدهم جرحه، أن يشكك في أصالته، أن يذكره بهواجسه، أن يجعل منه ورقة مرمية على الرصيف دون شجرة، دون محضن؛ أنزل يده، وسار حتى اختفى بين الطلاب.

عاد شيان إلى حيث يقطن، سكن للطلاب يتقاسمه مع زملائه من جامعات مختلفة في بكين، تنقل بين عدة مساكن بعد أن توفي والده، هنا يعيش جيو أيضًا؛ عائلته في قرية نائية.

سار شيان بصمت لم يتحدث مع أحد، لاذ إلى غرفته، أغلق كل شيء: الباب، والنوافذ، والستائر، وعينيه، حتى تفكيره. لا يريد أن يفكر في شيء، لا مشروع التخرج والكذبة التي اختلقها، ولا روفي الذي أدمى فمه، ولا عواقب كل هذه الأمور، حتى ليلك وإنكارها اختفى من عقله، نام بعمق، لم يوقظه شيء إلا قرع مُلِحٌّ على باب غرفته، هرع لفتحه وهو يلهث:

«افتح يا شيان، إن رأسي سينفجر..» كان يربط عصابة على رأسه، المرض بدأ يظهر عليه بشدة، أنفه محمرة، ومنتفخة قليلًا، وجهه نَدِيٌّ من العرق.

- «هل أيقظتني لتقول ذلك؟» بنفاد صبر.

- «ألم تقلق عليَّ يا صديقي العزيز؟..» بشيء من الدعابة. ثم أردف «إنني أمازحك.. أحقًّا فعلتها؟.. ها؟.. هل ضربت روفي يا أيها البطل الشجاع؟».

بدا جيو ليس سعيدًا بما حدث، كما بدا قلقًا من العاقبة، كان يضحك بخوف، يصرخ بألم، كل ما بجسده يؤلمه، يترنح كثمل، وعقله يحاول أن يتخيل منظر روفي وهو يلفظ دماءه؛ شعر بنشوة الانتصار، ثم نفض رأسه وصَوَّبَ نظره نحو صديقه، وقال بجدية:

- «أنصت إليَّ جيدًا.. نحن لم نُخْلَقْ لهذا.. لأن نقف أمام أبناء المسؤولين.. الأكابر.. نحن يكفينا النجاح في الكلية والعيش بسلام.. إضافة لتطبيق القوانين.. أفهمت يا عزيزي؟».

- «أهذا ما تراه أنت؟ أما أنا لا أقبل بأن يمس شخصي أحد.. كائنًا من كان.. يا ابن الحضارة العريقة..» تشاجرا قليلًا، ثم افترقا.

في غرفة بيضاء، الكثير من روائح التنظيف والمطهرات، هدوء مطبق، يحاول شيان فتح جفونه وهو ملقى على السرير، فتحهما بالكاد، وتعلقت عينيه في سقف الغرفة محاولًا الاستيعاب. لا يتذكر شيئًا. أين كان آخر مرة؟ وبينما هو كذلك أَحَسَّ بكف دافئة تربت على يده اليسرى التي كانت متدلية من على السرير؛ نظر إلى الكرسي بجانبه، لأول مرة تفاجئه الحياة بشيء جميل؛ ظَلَّتْ ملامحه متجمدة:

- «لقد اصطدمت بسيارة أمام الصيدلية.. ربما شردت قليلًا وأنت تسير..».

- «آه.. تذكرت، كنت سأحضر الدواء لجيو.. كنت مهمومًا؛ ربما أخذني التفكير فلم أشعر بنفسي..».

- «لا عليك، ارتَح الآن.. لحسن الحظ لم تُصَبْ بإصابات خطيرة.. فقط بعض الرضوض ستُشفى قريبًا..».

- «حسن الحظ كله لأنكِ هنا ليلك!»

توردت وجنتاها بشكل كبير، وشعرت بجسمها يوغز، شفتاها تجبراها على الابتسام؛ شدَّت من عضلات وجهها، وحاولت الثبات.

هذه الأمور لم تُخلَق لها؛ عليها الابتعاد؛ فهي من الذين كُتِبَ عليهم التخفي والعيش بعيدًا عن الأنظار؛ ليس لها أن تسمح بأن يتخلل حياتها سراب هي تعلم أنها ليست قادرة عليه، ليست قادرة على المواجهة. اليد الموضوعة تحت الصخر يجب ألَّا تُسْحَبَ بالقوة، عليها أن تكمل حياتها بهدوء دون أية أضرار أخرى تكلفها حياتها حقيقةً بعد أن فقدتها معنويًّا.

- «لِمَ تصمتين ليلك؟.. هل هناك شيء يخيفك؟.. هل تعانين من مرض ما؟ مشكلة ما؟»

قالت وهي تنهض من على الكرسي تَهُمُّ بالرحيل:

- «تبدو بخير الآن.. شيان.. عليَّ الذهاب..».

وهي تدير مقبض الباب؛ استوقفها بصوت لطيف:

- «ليلك.. لن أجبركِ على قول شيء لا تريدين قوله بعد الآن.. كوني مطمئنة.. أيضًا إن أردتِ أن تشاركي همكِ مع أحدهم.. سيكون ذلك من دواعي سروري..».

كان الصدق واضحًا في ملامحه، في الحقيقة شيان لم يكن بذلك السوء، كان ينتقم من القوانين، يشعر بأنها سبب عذابه، لكنه لم يكن مستعدًّا أبدًا أن يقف بحياد أمام احتياج الآخرين؛ خرجت ليلك من الغرفة دون أن تنطق ببنت شفه، صوت الباب وهو يُغلق كان كل ما سمعه شيان منها.

***

# الفصل الثاني

«مقتل ١٠ أشخاص صباح اليوم الخميس أمام مركز شرطة في مدينة كاشغر في مقاطعة شنجيانج، وكما صرَّحت السلطات الصينية الرسمية أن الحادث كان مفتعلًا من قِبَل بعض المتطرفين الإسلاميين في المدينة الذين هاجموا أعضاء لحملة (الهدف هو الجمال)، وهي حملة منظمة لتطوير الإقليم، والقضاء على المظاهر الرجعية كعادة غطاء الرأس، ولبس الملابس السوداء التي توحي بالكآبة وتخيف الأطفال، وقوبلت هذا الحملة الإنسانية المحضة بالعنف..».

- «أغلقي هذا الهراء.. يا مليكة..»

بصوت منفعل، ويداها مشغولتان بحشو المنتو.

- «أغلقته يا خالة.. هؤلاء كذبهم يجري على ألسنتهم كالسيل..» كانت تجفف يدها من الماء بعد غسل الخضراوات، تعد خالتها اليوم مائدة غداء لصديقاتها المقربات.

يحتاج المرء أحيانًا أن يكون مع الذين يحبهم فيبادلهم همومه، لكن ذلك سيتحول إلى كارثة إن لم تأخذ إذنًا من مركز الشرطة القريب من دارك قبل التجمع بيوم أو يومين، قد يسمحون وقد يرفضون، لحسن حظ السيدة قُبِلَ طلبها في إقامة دعوتها.

- «من الذي يوحي بالكآبة؟ الحجاب الذي أمر به الله أم هجماتهم الفاشلة في تجفيف أصالتنا ومعتقداتنا؟.. من يخيف الأطفال؟ الفطرة التي اختارها الله لنا أم شذوذهم الذي تهجموا به على النساء أمام أطفالهنَّ؟.. وحرموا الأمهات من فلذات أكبادهنَّ.. إسلامنا أم فاشيتهم؟؟» كانت تتميز من الغيظ، وتتكلم بانفعال؛ تركت المنتو من يدها، ونفضت ما علق بيدها من اللحم المفروم، ثم مسحت أناملها المشحمة بمنديل صغير بجانبها، أغمضت عينيها لتهدأ قليلًا من انفعالها.

اقتربت مليكة منها تشد على ساعدها؛ لتخفف عنها، تنفست السيدة فاطمة عميقًا، ثم تنحنحت حتى تخفف من حدة الغصة التي خنقتها، وأردفت وهي تنظر صوب الفتاة:

- «انظري يا مليكة.. أنا كبقية المسنات الأيغوريات، لا أفهم كثيرًا في العلم.. لا أفهم الفلسفة.. ولا السياسة.. جاهلة أنا أمام نساء الحِينة.. لكنني أعلم أن المرأة أكبر من كونها جسدًا.. لم تُخلق لتكون وسيلة للمتعة واللَّذة فحسب.. تخيلي المكانة المنحطة حين تعاملين أقل من كونك إنسانًا.. كدمية متى مُلَّ منها رُميت في أقرب المزابل.. هم يريدوننا هكذا.. يريدون جرنا لوحل قذارتهم.. الله يريد لنا العزة، وأن يجعل لنا مكانًا عليًّا.. ويريدون لنا حياة البهائم.. محصورة بين اللذة والتناسل..».

- «رضي الله عنكِ وعن كلماتكِ الحكيمة يا خالتي.. كم أتمنى أن أجمع بين حكمتكنَّ وعلم الحاضر!..».

ابتسمت السيدة فاطمة، وغار فكرها في البعيد، كأنها تتنقل في واحة خضراء في الذاكرة، تركض بين المروج، وتتسلق الأشجار تقطف بعض الثمرات، تُنزل قدميها في مياه النهر الباردة.

عادت للوراء للسنين الغابرة، ثم بدأت بسرد قصة من قصص ذلك الزمن الجميل حين كانت كغصن غضٍّ تحت يد والدها الحبيب:

- «كان أبي - رحمه الله - يملك دكانًا صغيرًا، كنت أذهب إليه بعد أن أنتهي من درس الشيخ أديب خان الذي كان يجمع كل أبناء القرية لتعليمهم أمور دينهم وحفظ القرآن، كنت حينها في الرابعة عشرة، كنت أُودِّع صديقاتي قرب الصف، وأركض إلى دكان والدي؛ لأسمع حكاياته عن الصحابة والصالحين، وأمورًا أخرى يشرحها لي.

في مرة من المرات حكى لي عن امرأة عظيمة، لم تقبل بأن تكون شيئًا لا وزن له، أرادت هذه المرأة أن تخدم البشرية بعمل عظيم، هي المرأة التي اخترعت جهازًا يظهر كيف تبدو السماء؛ حتى إنها عملت في بلاط سيف الدولة في مجال الفلك..».

- «مريم الإسطرلابي.. مخترعة الإسطرلاب.. لقد قرأت عنها.. أيضًا حكى لي عنها أخي..».

- «وغيرها كثيرات يا حبيبتي.. كم برعنَ المسلمات في مجالات عدة.. كنَّ ذوات كلمة مسموعة.. كانت إحداهنَّ تصوب كلام الرجل فيُسمع لها.. كن ركائز في كيان أمتهنَّ.. ارتفعنَ بعلمهنَّ ودينهنَّ.. لم تَرى أبدًا واحدة منهنَّ أن التعري، وخلع الحجاب، والتبختر بين الرجال شيئًا يجلب المكانة، أو يُثبت الذات».

قالت مليكة بتنهد:

- «ليت قومي يعلمون..».

توقفت عن الحديث، وأسرعت نحو الباب تجيب الطارق، كانت السيدة عائشة قد سبقت الجميع في القدوم، هي امرأة بدينة، ولطيفة، على وجنتيها غمازتان، ابتسامة صغيرة ترفع وجنتيها الممتلئتين، ترتدي وشاحًا أخضر تعقده أسفل ذقنها، تحمل بيديها سلة خشبية بها بعض الفواكه، صافحت مليكة بحرارة، ثم نثرت قُبلها على جنبي الفتاة المحرجة.

- «لم يكن مخطئًا ذلك الولد المشاغب.. حين قال: ليست جميلة فحسب، بل جميلة الجميلات..» قالتها وهي تتفحصها بنظرات ذات معنى؛ اكتسى وجه مليكة بثوب سابغ من الحياء؛ تلعثمت، واضطربت، ثم فضلت الهروب بحجة اللغمن الذي قد يحترق على النار.

* * *

سُمع دَوِيٌّ هَزَّ أرجاء المنطقة؛ حتى إن الضوء الناجم عن الانفجار قد انعكس على الأشجار المجاورة لمقر العملية، جراؤه قُتل خمسة جنود صينيين في أحد نقاط التفتيش في طريق مقفر خارج (أقسو)، المدينة التي شهدت مجازر دموية كبيرة، كل ذرة من ذرات ترابها تحمل حكاية مأساوية؛ قام النظام الصيني بدوريات مسح واستئصال لأي معتقدات دينية في المدينة، تم مداهمة بيوت القرآن السرية، ونُزع الحجاب من على النساء بالقوة، وهذه الأمور لا تقتصر على مدينة بعينها، بل إن تركستان كلها تنزف من كل مدينة وقرية، كل عين في تركستان تدمع، وكل قلب يَدمَى.

في شارعٍ فرعي يبعد عن الشارع الذي تمت فيه العملية بثلاثة شوارع أخرى رئيسة، كان هذا الطريق المؤدي إلى قرية صغيرة من القرى المترامية خارج أقسو، فيه تقف سيارة سوداء، فيها رجلان يلبسان ملابس عصرية كتلك التي يلبسها الصينيون، في الأمام رجل في الثلاثين من عمره، يلبس بنطالًا من قماش الجينز، وقميصًا أبيض عليه رسومات سوداء، أما الآخر

فقد كان أصغر سنًّا من الأول، كان يلبس قبعة رمادية على رأسه، ويلف شالًا أحمر حول عنقه، كان الشال مرتفعًا قليلًا؛ حتى إنه أخفى بعضًا من ملامحه، أما قميصه وبنطاله فقد كانا بُنيَّيْنِ.

كانا صامتين يرتقبان أمرًا، قلب كل منهما كان يرجف؛ فالخوف أمر طبيعي يصيب الإنسان في بعض المواقف، بعض الأمور تكون أكبر من تَحَكُّمِ البشر، خطأ واحد يكلفك روحك التي بين جنبيك.

كانا يسبحان، ويتجولان بخواطرهما في اضطراب، طرق أحدهم النافذة من الجهة اليمنى؛ انتفض الرجلان من الفزع، الشاب الذي يجلس في الجهة اليمنى ظنَّ أن من ينتظرانه قد أتى، ظهرت عليه ملامح الارتياح شيئًا فشيئًا، أخذ يحشر الهواء في أنفه بعد أن فرغت رئتاه من الهواء من فرط الخوف، رمقه الأكبر بشدة، وصَوَّبَ إليه نظرة حادة قذفت الريبة في قلبه مجددًا، ثم فتح النافذة؛ تجمدت ملامحه أكثر، وكان قلبه يدق بشدة، باغته سؤال الشرطي:

«من أنتم؟ وماذا تعملون هنا؟..» كان حذرًا جدًّا في خطابه. تفحص وجهيهما، ونظر في المقاعد الخلفية، وسَلَّطَ ضوء المصباح الذي في يده على أرجاء السيارة.

- «نحن سائحان؛ لكننا قد تعبنا من السير في الطريق.. أردنا أن نرتاح قليلًا.. نريد العودة إلى المنزل قبل الغد؛ لذلك اضطررنا للسير ليلًا..»

كان الرجل يبتسم ويتكلم بثقة، ثم وبدون تردد مدَّ له هويتَيْ تعريف، ثم أردف:

- «ألا توجد فنادق للنزلاء السياح هنا يا صديق؟»

- «لا.. هنا فقط بعض الهمج البربر.. أنصحكما بالمغادرة؛ الوضع سيئ اليوم.. هناك انفجار قريب من هنا.. ثم أنه لا يُسمح بالوقوف في مثل هذه الظروف؛ حتى لا تكونا عرضة للخطر..».

- «حسنًا، شكرًا لك..».

سارا ببطء شديد بعد أن غادرهما المتطفل الأخرق؛ ارتخت عضلاتهما المتشنجة، بعد خطوات يسيرة طرق أحدهم الزجاج الخلفي للسيارة بقوة؛ فزع كلا الرجلين واقشعرت أجسامهما؛ أوقف منصور السيارة التي كانت شبه واقفة أصلًا، فُتح الباب الخلفي، ثم دخل شاب وجلس بعد أن أغلق باب السيارة، كان يجول بنظره بين منصور كوتشاري وعبد الحق خوجة؛ حيَّره منظرهما الذي لم يتخيله هكذا أبدًا، ظنَّ أنه سيرى رجلين كبيرين في السن، أو حتى لا يلبسان هذه الملابس. لو أنه لا يحفظ رقم السيارة عن ظهر قلب لقال بأنه قد أخطأ العنوان.

- «هل أحضرتما الأمانة؟»

قال الشاب بحذر شديد وصوت منخفض، وكان ينظر في المرآة.

- «إلى أين يجب علينا التوجه؟» قال منصور، وهو يضع يديه على المقود.

- «إلى بيت ناءٍ عن القرية المجاورة، تسكنه عجوز طاعنة في السن وحفيدها الشاب.. اتبع إشارات يدي..»؛ أومأ منصور

برأسه، وسار خلف إرشادات الشاب.

كانت القرية مظلمة وهادئة جدًا، لا عجب؛ فالليل قد ادلهَمَّ منذ وقت طويل، خيَّم على الجميع سكوت مطبق، لا يُسمع إلا ارتضاض الحجارة على الأرض تحت السيارة.

في مشارف القرية كانت هناك مساحة واسعة لا يوجد بها أي أبنية، وبعد مسافة لا بأس بها كانت هناك بركة ماء صغيرة، القمر في منتصفها كعين مشعة من الضوء، كان منظرًا يذهب الوحشة التي أضفاها سكون القرية مسبقًا في النفوس.

صراصير الليل تنق، وحشرجة خفيفة بفعل دواب الليل، نهاد البومة يتردد في الفضاء. على الجهة اليسرى من البركة يقبع كوخ قديم يقف شامخًا في وسط أرض عشبية فارغة، من خلف الكوخ أشجار طويلة وكثيفة، يبدو أن هناك بابًا خلفيًّا يدخل منه الطلاب من الخلف، يؤدي إلى تلك المنطقة الكثة بالأشجار الموصولة بين الكوخ والقرية.

وصلت السيارة إلى منطقة قريبة من الكوخ، نزل الشاب ليتفحص الطريق، مشى باتجاه الكوخ، ثم قرع الباب؛ خرجت امرأة كبيرة دلَّ انحناء ظهرها وتلكؤها في المشي على أنها المرأة صاحبة الكوخ، نظرت نحو منصور وعبد الحق، وأشارت إلى الخلف؛ تحركت السيارة لتلتف حول الكوخ، وبالكاد وجدت طريقًا تسير فيه؛ فالأشجار أخذت حيِّزًا كبيرًا من المساحة الخلفية.

خرج منصور من السيارة وفتح الصندوق الخلفي للسيارة، ساعده عبد الحق لإخراج سجاد ثقيل، حملاه بطريقة عرضية، ثم أدخلاه للكوخ القديم، أدخلتهم العجوز إلى غرفة مجاورة للباب الخلفي. كانت غرفة كبيرة فارغة إلا من حصيرة كبيرة على الأرض، ورفوف فيها بعض الكتب والأقلام؛ وضعا السجاد على الأرض، ثم فتحاه.

«هذه فقط للتمويه..» بادر بالإجابة عبد الحق؛ ليزيل التعجب من وجه المرأة.

تطاولت الأيدي للمساعدة في فتح السجادة محكمة الإغلاق، كانت مطوية بالحبال، بعد أن فردوها ظهرت المصاحف الثمانية التي استطاعوا التسلل بها إلى هنا، لقد حالفهما الحظ كثيرًا حين لم يكشف أمرهما، فكم من الذين حاولوا انتهى بهم الأمر في سجون النازية أو في المقابر.

من الصعب جدًّا أن تكون مسلمًا هنا، إن وجدوك تتمتم بالقرآن أو تُظهر أي مظهر ديني؛ فما ستراه لن يسرك أبدًا، فلا بد أن يعاقبوك بعقاب تتذكره حتى آخر يوم في حياتك، هذا إن نجوت بها!

تستطيع العيش في عزلة، فلا يكدر أحد حياتك، أن تجلس في سفح جبل، أو تختار لك واديًا خصبًا تمارس فيه طقوس الحياة التي ترغب فيها، لا تعبأ بجور الجائرين، ولا ظلم الظالمين، قد تبدو أنها طريقة مريحة للعيش تستحق التجربة، لكن ما يمليه القلب والإيمان لا يستقيم مع هذا النوع من التجارب؛ فلمَ قد تُخْلَقُ كَفٌّ لا تمتد إلى المحتاجين؟!.. لمَ قد يُخْلَقُ قلبٌ لا يتألم لحال إخوة الإنسانية؟!.. لِمَ لَمْ نُخلق فُرادى إِذَنْ؟!.. لما جُبلنا على الترابط والتضامن؟!.. من يعدُّ نفسه إنسانًا إن لم تشعَّ في داخله شمس الرحمة؟

كنت أفكر في كل هذه التساؤلات والبديهيات التي أخاف أن تجبرني الضغوط على فقدها، لِمَ الكذب يوصل الإنسان

أحيانًا لِأَنْ يفقد معنى الحياة؟ ما قيمتها إذا فقدت معاني كل ما فيها؟ أن تُسلب سعادتُك، وأحبابُك، وموطنُك، ودفءُ قلبك، وحرارة شعورك، أن تتجمع آلاف الغُصَصِ في حلقك، أن تشاهد الناس يعاملون كالشياه المساقة، أن تُطمس العقائد، أن يصبح الدين جريمة، والعفة تهمة، والدفاع عنهما إرهابًا.

وبينما أنا أتلاطم بين هذه الأمواج غارقًا أبحث عن قشة؛ لأنجي شرفي الذي أراه يُستحَّل أمام مرأى كل راءٍ ومسمع كل سامع؛ أفزعني شيخ الجبل يحيى خان بصوته، لم يكن صاخبًا، لكنني كنت في عزلة روحية لم تتح لي سماع خطواته وهو يقترب مني قائلًا:

- «في أي شاطئ رسيت يا مسلم؟؟..» وضع يده على كتفي.

- «قُلْ: إنني ما زلت أبحر في بحر لا شاطئ له..» لم أنظر إليه، استقر نظري بعيدًا.

- «لكل شيء نهاية..».

- «بعض النهايات تأتي بعد فوات الأوان يا شيخي..».

- «لذا أعمارنا لا تُعد بالسنين التي تبدأ بشهادة ميلاد وتنتهي بشهادة وفاة..».

- «أظنني لم أفهم..» التفتُّ إليه، أخذت أتزحزح قليلًا من على الصخرة الكبيرة - عادة ما أقضي السحر عليها - وجلس الشيخ بجانبي.

- «يا مسلم، خذ عني، الأيام تنقضي، والأعوام تمضي.. والأجساد تموت.. والأفكار تبقى.. والتضحيات والمبادئ.. هذه أمور تحمل معنى أكبر من نهاية..».

توقفت أتأمل وجهه السمح ومن خلفه الشمس تبدأ بالبزوغ.. وسرحت في الكلمات التي تخرج من فمه كأنها ماء سلسبيل يروي بها عطش فؤادي.

كم يحتاج المرء لمن يرده من هواجسه، ويحميه من نفسه؛ شعرت بالامتنان للقدر الذي جمعني بالشيخ، ثم سمعت حشرجة بين الأشجار، بعدها ظهر شخص من خلفي همس في أذني، هززت رأسي، ثم نهضت من على الصخرة، ورفعت يدي إلى السماء وأنا في قمة السعادة بهذا الخبر الذي كنت أنتظره من الليل «الحمد لله.. بلغهم الرد الحاسم.. ليعلموا أنه ما زال للإسلام نبض.. ليعلموا أن الوطن ما زال شابًّا فتيًّا على موته ».

* * *

كانت الواحدة ظهرًا حين دخلت ليلك مقهى الطلبة القريب من الجامعة، كانت كعادتها رقيقة، وأنيقة، وهادئة، ارتدت ثوبًا سماويًّا يغطي ساعديها، ويتدلى إلى أسفل ركبتيها، كان يتموَّج حولها بفعل الريح؛ مما جعلها كحورية تسبح في بحرٍ لُجِيٍّ.

كانت تحمل أوراقها تتلفت يمينًا وشمالًا؛ حتى رأت مكانًا شاغرًا تستطيع أن تجلس فيه لإكمال عملها، مشت بخفة بين

الطاولات، تتعداها لتصل إلى الطاولة التي اختارت الجلوس عليها، وأثناء حركتها رأت العجوز صاحب المكان يشير إليها بيده مرحبًا، على ثغره ابتسامة حانية؛ بادلته الفتاة التحية؛ إذ كانت ليلك من الطلاب الذين يعودون مقهاه باستمرار، وهي الأثيرة عنده؛ فلم يكن يبخل عليها بالنصائح.

وضبت أوراقها وجلست على الكرسي، وهي تعبث بين الأوراق، وتحاول أن تجمع شتات فكرها بين كل هذه المعلومات المتراكمة، إذ فاجأتها كفٌ حالت بين الأوراق وعينيها؛ استدارت لتنظر، وإذ بشيان يلتف حول الطاولة، ويزيح الكرسي المقابل لها، ويجلس فيه؛ جمدت عيناها، لوهلة بدت ملامحها مستفسرة.

- «أريد العمل معكِ ليلك.. أريد أن أكون شريكك في مشروع التخرج.. أتسمحين؟؟».

- «أنت لم تبدأ إلى الآن.. ثم إنك لا تستطيع العمل معي.. جيو شريكك..».

- «لا تذكري لي ذاك الأبله.. إنه لا ينفع في هذه الأمور.. وأيضًا نستطيع أن نكون فريقًا واحدًا.. أنا وأنت وصديقي الأخرق.. إنه مريض على كلٍّ، لا يستطيع بذل مجهود كبير..».

- «لا أستطيع..» ردت بحزم.

خيمت سحابة من خيبة الأمل على ملامح شيان، ظنَّ أنه سيفلح في إقناعها، لو كان يريد موضوعًا عاديًّا لاستطاع إيجاده من أول وهلة، لكن..

«شيان..» قالت مقاطعة بصوتها الرقيق، فكأنما نفضت بصوتها غبار يأسه؛ نظر إليها مشدود الذهن يتعطش لسماع ما بعد هذا النداء الساحر، صمتت تستجمع الكلمات في فمها:

- «هل يمكنني الوثوق بك؟..»

- «بالطبع يمكنكِ!!» قالها بعد برهة تفكير، حتى إن حيرته من قولها نطقت من تعابير وجهه.

- «إن أردت العمل معي فهذا سيكلفك الكثير؛ لأن ما أعمل عليه ليس من شأن الضعفاء في شيء..».

لفَّت الحيرة فؤاده أكثر، عن ماذا تتكلم هذا الفتاة؟ كيف لمشروع تخرج أن يكون مخيفًا لهذه الدرجة؟؟

- «ماذا تقصدين ليلك؟؟»

أبعدت كوب الماء من أمامها، يداها معقودتان أمامها، انحنت على الطاولة، وفكرت قليلًا.

ربما هذا أول الخيط، لِمَ لا تتخذ خطوة جريئة مع هذا الشاب المتحمس، وتكسبه لصفها، وتدعوه للإيمان بقضيتها؛ تنحنحت ثم قالت:

- «علينا الذهاب في نزهة..» ثم أتبعتها بغمزة صغيرة؛ أوحت لشيان بنظرتها ونبرتها أن الأمر جدّي كما أنه خطير. يبدو الأمر أكبر من كونه مشروع تخرج، هذا أشبه بمشروع حياة.

تركت المقعد بعد أن جمعت الأوراق المبعثرة، ثم أسرعت خارج المقهى، ما هي إلا لحظات حتى لحق بها شيان.

- «ما الأمر؟؟» بادر بالسؤال.

- «اتبعني..» أجابت بجدية.

لم تزد على ذلك، جاءت الحافلة؛ فالمحطة محاذية للمقهى؛ ركضت نحوها ومن خلفها شيان يتتبع خطوات سيرها بلا هدى، صمتا في الحافلة طويلًا، وأخذ السرحان منهما كل مأخذ.

(يوان مينج يوان) الحديقة الساحرة. الأرض تكتسي حلة خضراء باهرة، الحديقة الملقبة بحديقة الحدائق، إنها القصر الصيفي للعائلة الإمبراطورية. الأشجار المتشابكة، والمناطق المخضرة الواسعة، وخرير المياه، وزقزقة العصافير، وأزهار الأقحوان المتفتحة التي تتراقص، والأغصان المائلة، بدت كأنها تحيي الزوار، والبرك الواسعة وفي مضايقها جسور صغيرة، والقصر المنصوب في المنتصف تحفة فنية تتحدى عوامل الزمن، السياح يملؤون المكان. بعض الأعراس تُقام هنا أيضًا.

ليلك وشيان يتخيران مكانًا للجلوس؛ اختارا منطقة بعيدة عن الأنظار، على جسر ناءٍ قليلًا فوق بركة صغيرة في طرف الحديقة. ليلك تولت هي الأمر، وشيان لا يتجاوز أن يكون تابعًا لها، سارا حتى استقرا على المقعد الحجري على الجسر النائي.

- «أولًا أخبرني عنك يا شيان.. عن طفولتك.. وعائلتك.. وموطنك..».

أدهشه هذا السؤال، هو جاء ليسمع منها لا لتسمع منه، جاء ليتعاونا في عمل يبعد تمام البعد عن هذه الأمور؛ تجعدت ملامح وجهه، رفع يديه يحاول قول شيء ما، لكن سرعان ما ضرب بهما على فخذيه في خيبة:

- «لا أعلم ليلك.. هناك أشياء كثيرة عني لا علم لي بها.. كان لدي شبه أب لكنه ذهب.. هذا كل شيء».

صمت يستجمع نفسه، أحس بالكلمات تطعنه من الداخل، بلعومه ينزف من إثرها، شعر بأنه قد أُنْهِكَ لمجرد ذكر هذه الكلمات البسيطة، من الصعب جدًّا أَلَّا يكون لك تاريخ معروف، الكلمات الدامية أثارت أحاسيس ليلك أيضًا، فهي الأخرى تجمعت العبرات في حلقها، ثم شرعت قائلة:

- «نحن متعاكسان شيان.. أنت تحاول إيجاد ماضيك.. وأنا أحاول نسيانه.. أنت ألمك في أنك لم تجد نفسك.. وأنا في إضاعتها.. الحياة مليئة بالعقبات.. كما البشر مكتظون بالأسرار..» تنفست قليلًا، جمعت كفيها ثم أرادت أن تكمل.

وفي هذه الأثناء التطم شيء مستدير على كتفها الأيمن؛ التفتت فإذا بطفل صغير يركض على مشارف الجسر بتجاههما، يبدو سعيدًا، كان يقذف بالكرة، ويركض فرحًا، عفوي الحركة، لا يتصنع السعادة، هو حقًّا يشعر بها.

قلوب الأطفال تتلهف لأي شيء، هذا ما يجعلهم أسعد الناس، كانت أمه تلحقه في الخلف، وقد بدا عليها السأم من ملاحقته؛ انبسطت ملامح الشابين مباشرة لرؤية الطفل، وارتسمت عليهما ابتسامة لطيفة، التفتت ليلك نحو شيان وهي تمسك موضع الرضة، وانفجر الآخر ضاحكًا في وجهها، وضع يده على فمه ليكتمها لكنه لم يستطع، كانت متحمسة للحديث، فكان جزاؤها ضربة على كتفها؛ لم تتمالك نفسها، ضحكت هي الأخرى، وأسرعت في أخذ الكرة، ورمتها على رأس شيان؛

انتقامًا من سخريته منها، كما ذهبت باتجاه الطفل تعاركه ممازحةً، «أول مرة أراكِ بهذا اللطف» أسرَّها شيان في نفسه.

* * *

لم تكن الشمس قد غابت تمامًا بعد، ما زال الشفق الأحمر مسيطرًا على الأفق كراية حمراء لواحة، في تلك الحينة طُرِقَ الباب بعنف، وثبت السيدة مريم من على سجادتها تتلكأ باتجاه الباب، ما إن وصلت لبداية الممر المؤدي إليه حتى فُتح الباب عنوة من الخارج؛ دخل رجال كالجراد المنتشر وعليهم أزياء الشرطة، مشهرين العِصِيَّ والمسدسات المثبتة بأيديهم؛ بُهتت المرأة، وتسمَّرت في مكانها كأنها وتد محشور في الأرض، بدا الرجال يبحثون عن شيء داخل المنزل، تنقلوا بين الغرف، حتى وصلوا للأخيرة، حينها رُفِعَ الصمت عن المرأة، وصرخت عاليًا:

- «ابنتي مريضة في الداخل؛ لا تفزعوها..».

ببرود التفت إليها الشرطي المتغطرس الذي كان يمسك بمقبض الباب، كان يحمل عصاه في إحدى يديه ويمسك بالأخرى سيجارة، نظر للسيدة طويلًا، ثم تحرك بعيدًا عن الباب، بدا كأنه تراجع عن نيته، وفجأة أسرع باتجاه الغرفة مجددًا، ورفع رجله بمحاذاة المقبض، ثم فتحه بركلة هزت الباب هزًا.

كانت السيدة مريم تكتم آهاتها، كلا كفيها كانا يسدان ثغرها، رأت أن التوسل مع هؤلاء يؤدي إلى نتيجة عكسية؛ أغلقت أذنيها، كان الصوت الذي يخرج من الغرفة مرتفعًا: ركلٌ، وصفعٌ، وصراخٌ، وتوسلات، وأشياء تُلقى على الأرض، وأصوات ارتطامات قوية؛ أرادت المرأة إنقاذ ابنتها؛ فتشبث بها الشرطيان اللذان كانا بجانبها بقوة، بعد قليل خرج الشرطي والفتاة بيده، فتاة في بداية العشرينات، تضع حجابًا أبيض على رأسها، لم يكن الحجاب مستقرًا عليها؛ إذ لم يكن يستر مقدمة شعرها، ويدها كانت متشبثة به ما أمكنها ذلك، بدت الرضوض في وجهها ملحوظة، وبقع الدماء على رداء الصلاة الأبيض.

كانت دموعها تنهمر بغزارة، وصوتها قد بُح وهي تعارك ببسالة، يد الشرطي على رقبتها تجرها كالشاة أمامه، وبيده الأخرى يسد ضربات الفتاة الموجهة نحوه، والآخران يثبتان المرأة المفجوعة في ابنتها، أما باقي رجال الشرطة فكانوا يقهقهون، وينظرون هنا وهناك، يبحثون عن أي شيء للإدانة.

- «سنستعير ابنتك الجميلة قليلًا..» قال الشرطي الممسك بالفتاة.

- «لا.. لا.. حُسنة حبيبتي..» كانت تقولها وهي تحاول الخلاص من الجاثمين عليها، لكن لا فائدة؛ حيطان المنزل تتلاطم بأصوات البكاء والضحك، كيف للضحك والبكاء أن يجتمعا؟؟

حين يفقد الإنسان إنسانيته؛ فلا يبالي بما حوله، ويتحول إلى وحش سادي يَسعد لألم الآخرين، وعندما يصبح الإنسان آلة لتأدية الأوامر دون الالتفات لصوت العقل والضمير، ينزل إلى ما دون منزلة الحيوانات، لا ضابط لسلوك الإنسان إلا القيم؛ فمتى ما خلت منه لا يستحق أن يُقال عنه أنه إنسان.

- «أُخذت حُسنة إلى المجهول.. السيدة مريم فارقت الحياة إثر سكتة قلبية..» قالها سليم وهو يلهث أمام غرفة مليكة.

«ماذا تقول؟؟..» صرخت بكل صوتها، وهزَّتْ رأسها منكرة، رمت الكتب التي عليها، تريد البكاء، لكن شيئًا في صدرها قد

تجمد، أنفاسها تتقطع وهي تنظر إلى أخيها الرجل العظيم يفرك عينيه الحمراوين، كأن مقلتيه تمطر دمًا.

كان يستند بيده على الباب يحاول جاهدًا أن يعدل من قامته؛ تجمع الصبية الصغار من حوله فزعين لما حدث لأبيهم.

- «إننا نخسر فتياتنا يا أخي..».

- «اللهم إنا مظلومون فانتصر..» رددها مرارًا، ودمع عينيه لا يقف، ثم ترنح بلا هدى يمشي بعيدًا.

لا تدري مليكة كم أخذ منها الوقت حتى وصلت إلى دار الشيخ أبي محمد، سارت تائهة في الشارع بعد أن تلقت خبر موت السيدة مريم، واعتقال صديقتها المقربة حُسنة، لَكَمْ عَمِلَتَا معًا، وخططتا، كانت مليكة تدرِّسها القرآن خفية، بعد أسبوعين كانت حُسنة ستتم حفظ كتاب الله؛ لتصبح هي أيضًا معلمة للقرآن مثل مليكة، كانت تأمل مليكة أن تخفف حُسنة عنها بعضًا من أعباء التدريس؛ فتصلا إلى أكبر قدر من الفتيات، لكن سخط الله على سارقي الأحلام، وقاتلي الآمال!

عندما أرادت مليكة طرق باب المنزل وجدته مردودًا؛ دفعته برفق ثم دخلت، سارت حتى وصلت لغرفة الشيخ، كان يُقرئ الأولاد سورة الإخلاص، خشيت مليكة المقاطعة؛ توقفت بجانب الباب، لم تحملها قدماها؛ هبطت إلى الأرض، وشدت ركبتيها إلى صدرها، وأسندت رأسها عليهما، وأنصتت لتلاوة الشيخ وتلاوة الأولاد بعده كأنهم في عالم مختلف بعيدين عن آلام الموت والحياة، يسبحون في ملكوت الآيات، تحوم أرواحهم في نورانية الله، كان صوت الشيخ يخرج ليخترق أذنيها بدون إذن؛ حتى تهز كلماته قلبها، وتنفض عنها اليأس نفضًا:

- «اعلموا يا أبنائي.. أن كل الديانات التي نزلت من السماء أتت لمحاربة الشرك.. وتأصيل وحدانية الله في القلوب.. عندما نوحد الله؛ فنحن لا نخاف، ولا نرجو، ولا نستعين بأحد سواه.. الله «أحد» أي واحد لا له قبل ولا بعد.. «صمد» ملجأ للضعفاء.. يسمعك حين تحل عليك المصائب.. يرى تربص المتربصين.. يحميك من كيد الأعداء.. «لم يَلد ولم يولد» ليس له زوجة ولا أب ولا ابن.. متفرد بالألوهية وصفات الكمال والجلال.. «ولم يكن له كفوًا أحد».. أي لا يشبهه أحد من الكائنات في قوته، ولا هيبته، ولا عظمته.. عندما تستشعرون هذه الأمور يا أولادي؛ فلن تحزنوا ولن تخافوا.. ستشعرون بأنس الله لكم.. وعونه ودعمه ومساعدته لكم في كل حين ولحظة.. الله يعني الأمان.. يا أعزائي..».

«الله يعني الأمان..» رددتها مليكة بيقين، وأغمضت عينيها مستشعرة حلاوتها في فمها. ما أجمل الرسائل الربانية التي تصلنا من الله في الأوقات التي نكون في أَمَسِّ الحاجة لها!! ما ألطف الله حين يُثَبِّتُ القلوب بعد كل بلاء!! بل في بلائه كل خير. عادت الفتاة لحالتها السابقة، بل عادت أكثر عزمًا وأشد إصرارًا.

خرج الصغار كأنهم ولدان مخلدون يملأ وجوههم النور، كانوا يتهامسون فيما بينهم، كانوا خمسة أولاد في سن العاشرة - لا يسمح بحضور أعداد كبيرة للسلامة الأمنية - لكنهم بذور طيبة لشجرة طيبة تؤتي أُكُلَها كل حين.

دلفت الفتاة إلى الباب، ثم تحركت بضع خطوات نحو الشيخ الذي كان يوضب الكتب المرصوفة أمامه؛ انتبه لدخول مليكة، لم يلتفت نحوها، واستمر في انشغاله، وقال بصوت رصين:

- «ما الأمر يا بنتي؟؟».

- «حُسنة..» قالتها بحرقة.

- «نعلم ما حَلَّ بها..» قالها بحزن.

- «إِذَنْ؟؟» باستنكار واضح.

- «الصبر.. الصبر..».

- «الصبر المصحوب بالعمل.. لا بد أن أقوم بعمل ما..» قالتها والشرر يتطاير من عينيها كأنها تأمره، لا تأخذ الإذن منه.

- «لكلٍّ وجهة هو موليها..».

- «لم أفهم!! » بنفاد صبر.

كان طول ذلك الوقت يجاوب على أسئلتها باقتضاب، وهو يعبث في الكتب التي بين يديه، يكتب شيئًا، ويقلب الصفحات، ويرتب الأوراق؛ مما زاد غضب مليكة؛ شعرت بأنه لا يكترث، كأن ما حدث لا يعنيه.

نظر إليها أخيرًا، ثم أمرها بالجلوس بإشارة من يده؛ اقتربت منه أكثر، ثم أخذت تتموقع على الأرض، عقد أبو محمد يديه أمام صدره وقال بصوت متزن:

- «خلقنا الله مختلفين عن بعضنا.. لكل واحدٍ منا جانب يتميز به عن الآخر.. بعضنا خُلِقَ للسلاح مثلًا.. يدافع عن المظلومين، وينهي ظلم الظالمين.. والبعض يتعبد إلى الله بسماعته الطبية.. يداوي الجروح ويخفف الآلام.. وآخرون يتعبدون الله بالكلمة الطيبة والنصيحة الحسنة المنبثقتان من الإيمان العميق بقضية مقدسة.. مثلكِ تمامًا.. وظيفتكِ هي نفض غبار الإلحاد الذي يتربص بمدينتكِ.. واجبكِ هو أن تتعهدي قلوب أخواتكِ المؤمنات، وتزيلي عنهنَّ الوهن واليأس.. وتشعلي فتيل الإيمان والمقاومة والثبات على الحق.. في عيادتكِ الصغيرة وأنتِ تداوين الناس، وتصفين لهم الأعشاب.. أضيفي وصفات الروح التي هم في أَمَسِّ الحاجة إليها.. أنتِ يا مليكة لا تستطيعين توجيه السلاح أمام المحتل، لكنكِ تفضحين همجيته الشوهاء بتجسيد المثل الرائد للمرأة المسلمة.. نحن بلد محتل منذ عشرات السنين.. الشيء الوحيد الذي يجعلنا نقف على أقدامنا هو إيماننا بضرورة الثبات على المعتقد، والذود عنه بالحملات المضادة.. دفاعًا لا انتقامًا.. كنا قبل الاحتلال الصيني٣٥ مليون نسمة.. أما اليوم فأعدادنا قد تناقصت إلى ٨ ملايين نسمة.. أما عن إسلامنا - والحمد لله - فلم ينقص منه شيء..».

لم تستطع مليكة الرد أو الزيادة على كلام الشيخ؛ فهذه الحقيقة؛ ما الذي بوسعها أن تعمله أمام إمبراطورية عملاقة كالصين، لكن بوسعها الكثير في إنقاذ دينها وتراثها من الداخل.

القوة قد تكون خفية لا تُرى للعين إلا بعد وقت طويل، لكن حين تظهر فلا شيء يستطيع إيقافها؛ عزمت الفتاة على العودة لعملها بين أخواتها تذود عنهن براثين الإلحاد، ودنس الشيوعية.

* * *

# الفصل الثالث

كان الليل كئيبًا كليالي الشتاء الطويلة، السماء سوداء، والقمر مختفٍ، لا إضاءة في طيات الجبل الكبير، الظلام دامس، والقائد مسلم باتور يمشي بحذر في طريقه للوادي المواجه للجبل، يسير بين الأشجار هبوطًا، كان يضع شالًا أسود على رأسه، يكاد لا يُرى من وجهه شيء إلا لمعة عينيه تعكس ضوء شاحنة أمامه مباشرة، تقف أسفل الوادي، هناك كان منصور كوتشاري وعبدالحق ينتظران وصول القائد، لحظات حتى اجتمع الثلاثة وركبوا الشاحنة الكبيرة.

- «الخطة معقدة جدًّا هذه المرة..» قال مسلم بجدية وهو يصعد الشاحنة.

- «يجب أن نسرع يا سيدي.. لقد رصدتُ حركات الجنود.. حسب دراستي سيتغير طاقم الحراسة بعد وصولنا لنقطة الالتقاء بنصف ساعة.. طبعًا إذا تمكنا من السير بالسرعة المطلوبة..» قال عبد الحق:

- «سننقذ شرفنا هذه المرة..» كانت الكلمات تخرج ملتهبة من حنجرة سليمان.

- «إن شاء الله..» تمتم الثلاثة.

عند محطة وقود في منطقة غير مأهولة على طريق جبلي في سفح جبل «تيان شان» الذي يصل إلى (أورمتشي) - عاصمة الإقليم - توقفت سيارة سوداء فارهة بنوافذ مضللة، تبدو لأناس ذوي وجاهة. باشر عامل المحطة بملء خزان الوقود، في تلك اللحظة وبشكل مفاجئ امتلأت الأرجاء بالأدخنة، كانت الأجواء ضبابية، لا يُرى شيء سوى الدخان الأبيض، كل الذين كانوا يقفون عند المحطة بدأوا بالسعال الحاد؛ ترامى العمال بعد أن خارت قواهم، أصوات الصراخ بدأت تخفت شيئًا فشيئًا.

بعد دقيقتين جاءت سيارة صغيرة بيضاء، ثم ركنت بجانب تلك الكبيرة الفارهة، لحظات حتى خرج رجلان من السيارة الصغيرة، ركضا بسرعة وفتحا أبواب السيارة حديثة الطراز، حدث عراك صغير عند الباب، كانت الغلبة للرجلين ذوي الكمامات، وبالقوة تم نقل كل الركاب إلى السيارة الصغيرة، سارت السيارة بسرعة هائلة بعيدًا، وتدريجيًا اختفت بين الظلام.

بعد مرور عشرين دقيقة توقفت السيارة، الرجلان في الأمام هم الشاب سليمان تركستاني، وشاب آخر. خمس دقائق مرت وهم يقفون ينتظرون في ضاحية نائية أسفل الجبل، لم تمر الدقيقة السادسة إلا والفتيات اللاتي في الخلف بدأنَ بالحركة، كنَّ ثلاث فتيات، التفت إليهن سليمان بعد أن رمى بالكمامة بعيدًا، كانت أعينهنَّ لا تزال مشوشة، كانت شعورهنَّ شعثة، الملابس متسخة ومقطعة، بقع قذرة من التراب والدم، وجوههنَّ شاحبة، الذعر كان ينطق من وجوههنَّ بدون كلمات.

أبعد سليمان عنهنَّ الأقمشة التي قد سُدت بها أفواههنَّ، وساعده الشاب الآخر بحل العقد التي قُيِّدْنَ بها. كل هذا والفتيات لا ينطقنَّ بكلمة، فقط أنفاسهنَّ المتقطعة تتوسل، وأعينهنَّ التي كانت تسيل بلا توقف تطلب الخلاص.

مرت عشر دقائق حتى أتت شاحنة كبيرة وسدت الطريق بالعرض، خرج مسلم من الشاحنة، فتح الباب للفتيات وأشار لهنَّ بالخروج، بين أكوام الأقمشة المتروسة داخل الشاحنة حشر الفتيات أنفسهنَّ بينها بأمر من القائد مسلم، ربت القائد على كتف سليمان بكل فخر.

- «الحمد لله تمت نصف العملية بنجاح.. بقي لنا إيصالهنَّ للجبل الكبير.. أبليت حسنًا يا سليمان..» كانت كلمات القائد حنونة جدًّا، نظراته لسليمان مليئة بالفخر، كيف لا وهو بذرة يده؟

- «علينا التحرك..» قال منصور وهو يخرج رأسه من نافذة الشاحنة.

- «ما بقي من الخطة أصعب مما فات..» قال القائد مسلم بحزم، ثم أكمل:

- «تمويه العدو والبقاء في دائرة الأمان أصعب مرحلة».

اعتلى القائد مسلم الشاحنة الكبيرة كما فعل سليمان ذلك أيضًا، أما عبد الحق فانطلق بالسيارة الصغيرة في أوساط المدينة المجاورة؛ ليعود لعمله في التخفي ورصد المعلومات.

- «وهذه هي الطريقة التي تم بها إنقاذ أختنا حُسنة، وأختيها عائشة وليلى.. يا أولاد..»

أكمل الشيخ يحيى خان قصته والأطفال يستمعون بشغف كبير.

«عندما أكبر سأكون مثل القائد مسلم يا شيخي» صاح أحد الأطفال من الخلف بصوت كله حماس، في حين كانت الغرفة مكتظة بأطفال الجبل، يستمعون إلى قصص الشيخ، ويأكلون حلوى النصر؛ فسكان الجبل يحتفلون عندما يمنُّ الله عليهم بنصر جديد على الأعداء، في الخلف كانت حُسنة تقف على الباب مسدلة رأسها على كتفها، تنظر إلى الأطفال بسعادة، وتجد في كلمات الشيخ قصة جميلة بعيدة عن القصة الحقيقية المرعبة التي عاشتها، كانت تبتسم بشكل تلقائي لردة فعل الأولاد، وفرحهم بانتصار الحق على الباطل في هذه الجولة.

ودائمًا ما كانوا ينتظرون آباءهم ليعودوا محملين بأخبار الانتصار، كل من في الجبل مغمور بالفرح، وطافح بالأمل، متطلع إلى النصر الأكبر، يتأهب لعرس التحرير، عرس استقلال تركستان وخروجها من قبضة الصينيين الظالمة، كما حررت حُسنة.

- «زال البأس..» فجاءها صوت سليمان تركستاني من خلفها.

- «الحمد لله.. الشكر لكم أنتم بعد الله..» قالت بعد ارتباك.

- «ما شاء الله..» قالها بدون وعي، خرجت منه بتلقائية، كانت عينيه ما زالت معلقة بعينيها، كم تشبه هذه الفتاة السحابة نقاءً وصفاءً وجمالًا، لم تجب الفتاة، أحكمت حجابها الوردي وشدته على رأسها، ثم أخذت تهرول مسرعة باتجاه صديقاتها اللاتي كنَّ يرقبنها من بعيد ويتهامسن بمكر، أما أنا فأرقب كل ذلك متكئًا على أحد أعمدة المسجد القريبة من الباب المطل على الخارج بهدوء.

* **

كانت سوقًا شعبية تلك التي تقف في آخرها ليلك، وهي ترتدي فستانًا أصفر، وشعرها البني ملفوف على هيئة كعكة الدونات، خصلات من غرتها المنعكسة فيها أشعة الشمس تتمايل يمينًا ويسارًا، تعبث بملامح وجهها، وجنتيها المنتفختين، وشفتيها المتوردتين.

حين يجتمع الاسم والمسمى في شخص (ليلك) ما أشبهها بزهرة الليك!! كانت يداها ممسكتين بحقيبة فيها بعض الأوراق، وكيس ورقي أسود عليه بعض النقوش الحمراء. وقفت تنتظر، وروائح الطعام والبهارات تغزو الأنوف، كما فعلت بأنفها

أيضًا.

الكثير من الألوان من حولها في هذا المكان المبهرج باللون الأحمر كباقي الأماكن الشعبية الصينية، بعد أن كلَّت من الوقوف منتظرة؛ بدأت تتململ ثم تلفتت هنا وهناك، أخيرًا شدت انتباهها عجوز تبيع الكعك المقلي - نوع من الحلويات منتشر جدًّا في الأسواق الشعبية في بكين - اشترت بعض حبات منها، وضعتها العجوز في كيس بني صغير. ليلك كانت تعبث بحقيبتها لتعطي المرأة النقود، امتدت يدٌ من خلفها بشكل مفاجئ، ودفعت المال للمرأة المسنة.

- «كفارة تأخري..».

- «أنت رجل مستهتر.. شيان.. لقد أضعت كل الوقت، لن يتبقى لنا أكثر من نصف ساعة للعمل..» بشيء من الغضب.

- «أنا جاد هذه المرة ليلك.. لا تظلميني.. كنت مع جيو لآخذه إلى محطة القطار..».

- «لماذا؟؟..» بشيء من القلق.

- «المسكين مريض.. تزداد حالته سوءًا مع الوقت.. قال بأنه يبصق الدم بعد نوبات سعال حادة.. لذا يرى أنه يجب أن يأخذ راحة مطولة في القرية.. تعرفين الجو هناك قرب والدته.. هناك أشياء تجلب العافية أكثر من عقاقير الأطباء..».

العافية، كانت والدة ليلك تمسح على رأسها وتتمتم، كانت تتعافى بسرعة «العافية أم أيضًا..» أضمرت ليلك هذا التعليق في نفسها.

- «ستكون حالته أفضل هناك..» قالت بابتسامتها الساحرة.

- «أرجو ذلك..» قال برجاء.

على بعد خطوات من السوق منتزه صغير. سار الشابان مسرعي الخطى نحوه، هناك كراسي منتشرة في كل مكان، الأشجار ملتفة حول بعضها، هناك أشجار مقصوصة على أشكال مختلفة كزهرة كبيرة، مدرجات، دوائر منتظمة، لكن هموم الدراسة كانت مخيمة أيضًا.

شرع شيان في فتح أوراق ليلك، نبش فيها، وأخذ يقرأ منها بشكل غير منتظم، يقرأ كلمتين من هنا، وأخرى من هناك، ليلك تخرج كتابًا صغيرًا تبحث أيضًا، استوقفها شيان متعجبًا بعد أن شعر بأنه لم يصل لشيء ذي قيمة.

- «عن ماذا تتكلمين؟؟.. جميع المعلومات المدونة تتحدث عن حقوق الإنسان.. يبدو أنك نسيتِ تخصصكِ!!..» ثم ضحك محاولًا إكمال حديثه، لكنه لم يستطع.

- «الموضوع يبدأ من هنا..» بدت جادة في حديثها.

- «ليلكي الجميلة.. نحن هنا بخير.. في الصين الجميع يعيش.. الدخول الشهرية مختلفة.. صحيح يوجد فقراء.. لكن الدنيا جميلة أيضًا.. تكلمي عمَّا نحتاجه نحن.. في الحقيقة أنا لم أفهم!..» قلب الأوراق وأشار بيده إلى بعض الكلمات، «تتكلمين هنا عن اعتقالات.. تعذيب.. سوداوية أنتِ!!» قالها بقرف.

لم يعجبه أن يضايق أحد الصورة الجميلة للحياة في نظره: لعب، ولهو، وطعام لذيذ، أما ضغوط الجامعة، وأيضًا ربما ليلك وقلبها اللامبالي فشيئان مستثنيان من متاعب الحياة، لكن حياته مستقرة، الشباب في السكن، وسهراته أحيانًا، وحفلات الأصدقاء، ماذا يريد أكثر؟؟

- «أنت جاهل..» لفظتها متحققة من نطقها، قالتها وهي تعني كل حرف فيها.

- «عفوًا..».

صعقته هذه الكلمة منها - صمتت دهرًا، ثم نطقت كفرًا - ظلت تمسك رأسها، وتمسح بعضًا من قطرات العرق التي على جبينها، أصبح الضيق باديًا عليها، بدأت تتنفس بسرعة كأن الهواء الذي في المتنزه قد أصبح ثقيلًا؛ فلا تستطيع أنفها الصغيرة استنشاقه، والآخر ينظر متعجبًا، صامتًا، ينتظر ما بعد كلمة: «جاهل».

- «سأسألك سؤالًا..» ركز نظره نحوها باهتمام، وأومأ بالرضا؛ قالت:

- «لِمَ أنت على قيد الحياة؟ ما الشيء الذي يجعلك تكافح الحياة لأجله؟ تنهض من سريرك كل يوم، تعيش لأجل ماذا؟ »

سكاكين تخرج من فمها لتنخر إنسانيته، وحقيقته، وكيانه، لو كانت أسئلة لا تداهمه حين يكون وحيدًا من كل شيء إلا من صوت الضمير في داخله - عقب كل جلسة من جلسات العربدة في مقهى ما، بعد الكثير والكثير من كؤوس الويسكي، حين يعود خالي الوفاض، معزولًا من منعشات الروح، من ضحكات المجون، وتصفيق الأيدي - لاكتفى بضحكاته الساخرة، ولنعتها بالجنون والهذيان، ولضربها على رأسها لتصحو من هذا الهراء، لكنها لم تكن إلا انعكاسًا لشيء في داخله مفاده: ثم ماذا بعد؟

نزع قبعته السوداء التي هي جزء منه، كأنه أراد لعقله أن يتنفس مباشرة دون أية أشياء وسيطة.

- «لا شيء.. لا أعلم..» خرجت بدون تفكير، خرجت عبارته هاربة من سجن كبير فيه مئات الأسئلة التي تحتاج إلى من يفسرها.

- «يجب أن تعلم..» بجدية طافحة، بعينين مثبتتين عليه، كادت نظراتها ترديه قتيلًا، ثم تراجعت عن جديتها قليلًا:

- «ستغرب الشمس قريبًا، سيكون من الجيد أن نسير إلى البيت.. سأخبرك قصة في الطريق..».

سارا جنبًا إلى جنب بخطى متثاقلة، وأيدٍ ممتلئة بالأوراق، تواريَا خلف باب المتنزه، وابتعدا حتى أصبحا خارج السوق الشعبية أيضًا، وصلا لشارع رئيس فيه السيارات على الجانب الأيمن تسير بسرعة، الهواء يمر بسرعة يكاد يأخذ فستان ليلك معه، أمسكت به بكفها بقوة، الشمس تجر أذيالها مودعة، وبعض المحلات أضاءت الأنوار الليلية، في تلك الأثناء بدأت ليلك بسرد قصة:

- «في ليلة جميلة صافية كان قمرها عروسًا جميلة تتزين لحفلة زفافها، كانت بشعر أسود فاحم، وعينين رماديتين واسعتين، تستطيع أن ترى انعكاس وجهك عليهما، بساتين من الورد الجوري متفتحة في وجنتيها، حواجب كثيفة تضفي على ملامحها وقارًا مملوءًا بالهيبة وتزيد من جمالها، شفتاها تأخذان لون الدم كأنهما مصبوغتان بتوت بري، ثوبها السابغ

الأبيض يتدلى على جسدها الناعم. كل ما بها كان ينضح بالجمال، كانت تضع على رأسها وشاحًا أبيضَ مطرزًا، كانت كالقمر يوم التمام، لم تكن شيئًا آخر، والدتها كانت لا تفارقها، تتفقد نواقصها، وتحوم حولها فرحة، الطبول تُقرع في الخارج، والأطفال بملابس ملونة يوزعون الحلوى في سِلال خشبية مزينة، والنساء يغنينَ أهازيج شعبية.

في البيت المجاور كان العريس يستعد بدوره، يلبس ثوبًا أبيضَ، يضع قبعة بيضاء على رأسه المُسرح جيدًا، يرش العطر، والرجال يلتفون حوله، يمطرونه بالتبريكات والدعوات.

في تلك الأثناء حدث ما لم يكن متوقعًا، هجم قطيع من الذئاب على القرية، يركضون ويركضون، قطعان لا حصر لها، الدماء أنهر على الأرض، الصرخات تعلو، أصوات عراك، ثم انتزعوا العروس أمام أعين الجميع، كانت تبكي وتتوسل وتنوح؛ لم يستطع أحد أن ينتزعها من بين الأنياب والمخالب، قتلت الذئابُ أمَّ العروس، وفر الجميع من القرية، كانت العروس ممسكة بوردة في يدها، أُخِذت العروس ووردتها إلى سجن كبير معتم لا أحد يعرف عنها، ولا هي تعرف عن أحد؛ سُرقت حياتها وحياة وردتها ببساطة..».

- «هل أنتِ من ألفها.. أقصد هذه القصة الحزينة؟؟».

- «بعض القصص تُولد معك شيان..».

كانت عينا ليلك نديتين كسحابة مملوءة بالمطر، حزنها ظاهر في وجهها، سارت صامتة بجانب شيان حتى وصلت للحي الذي تقطنه، التفتت لشيان، لم ترفع نظرها إليه، اكتفت بمد يدها مناولة إياه كيس الهدايا الأسود؛ اتسعت عينا شيان، أراد أن يرسم ابتسامة على شفتيه، لكن شفتيه كانتا ثقيلتين، أثقل من أن تتحرك؛ تناول الكيس منها بصمت، «كوني بخير..» تمتم بصوت خافت، ثم اختفت في الزقاق.

فتحت باب الشقة، كانت شقة صغيرة مكونة من غرفة نوم وأخرى للمعيشة، السكون مخيم على المكان، رائحة شوربة الدجاج سيدة الموقف، طاولة صغيرة عليها قطع خبز وصينية شوربة، تجولت ببطء، وتركت أشيائها على كرسي بجانب التلفاز، قادتها خطواتها لغرفة النوم المكونة من سريرين، أضاءتها «ها أنتِ..» قالت بهمس.

أختها الكبرى تنام على سريرها ممسكة بدفترها القديم الذي قد اكفهرت أوراقه فأصبحت صفراء قديمة، عيناها منتفختان، أزاحت شعرات سوداء مبعثرة على جبين أختها بأناملها الرقيقة، وقبلتها بهدوء، وظلت تتأملها وتسرح بين تقاسيمها الفاتنة:

- «حتى وأنتِ غارقة في الحزن تبقين جميلة كأميرات فارس في دواوين شعر حافظ الشيرازي» استلقت بدورها على السرير الآخر، وأخذت تتنقل بين أفكارها.

وفي شرفة مرتفعة كأنما عُلقت في السماء يجلس شيان حاملًا هديته التي أخذها من ليلك، يتلمسها بيده، يتحسس آثار أناملها، أخيرًا قرر النظر فيها؛ نزع الأغلفة الملفوفة حولها بإحكام، إنها مذكرات قلبها آمِلًا أن يجد أحرفًا رقيقة تنساب منها لتروي عطشه، فوجد أنها خالية تمامًا عدا من جملة واحدة ما زادته إلا حيرة على حيرته.

«قلبك بوصلة حياتك، وهو مفتاح ماضيك ومستقبلك..».

* * *

في صالة الانتظار، في عيادة صغيرة تعالج بالطب الأيغوري، تجلس السيدات على الكراسي ينتظرنَ أدوارهنَّ؛ فنساء الأيغور وخاصة المسنات منهنَّ يفضلنَ التداوي بالطب الأيغوري التركي القديم الذي ورثوه الأيغور الأتراك عن أجدادهم؛ إذ يرتكز هذا الطب على العلاج الفيزيائي، كالتدليك، والتمارين الرياضية، والحجارة الساخنة، والحجامة، وغيرها من الأمور التي برع فيها الأيغور، كما يتم التداوي عن طريق الأعشاب الطبيعة ذات التأثير الفعال، كنَّ يتبادلنَ أطراف الحديث كعادة النساء حين يجتمعنَ في مكان واحد.

- «الوضع لا يُطاق..» قالت إحدى الشابات الحوامل بضيق صدر

- «نريد أن نُؤمن حياة أطفالنا.. نريدهم أن يعيشوا بعيدين عن الاضطهاد الشيوعي.. كل نساء العالم يسعدنَ حين ينجبن أطفالًا.. إلا نساء تركستان تبكينَ أولادهنَّ قبل أن يقدموا إلى الحياة..».

تكلمت سيدة مسنة قد تجعد وجهها، كانت شبه ممتدة على كرسي في آخر الصالة، قالت وهي تلهث من التعب، وتجرُّ الكلمات من أقصى حلقها:

- «لو رأيتِ يا بنتي الجنود المنتشرين في شارعنا اليوم.. يبحثون عن شاب صغير.. آه لو رأيت فؤاد أمه كيف تفطر عليه.. تدعو الله ليلَ نهارَ؛ كي يحفظه، ويعود إليها سالمًا..».

- «كم يحزنني أمر الفتيات اللاتي يُؤخذنَ بالقوة ليعملن في مصانع الصين.. تجدين الواحدة منهنَّ مثل القمر..» شاركت امرأة أخرى تقف على الباب تعقد يديها أمام صدرها، تنتظر ابنتها أن تخرج من غرفة الفحص.

- «والله لا يحرق روحي أكثر من اللاتي يُؤخذنَ لبيوت الدعارة.. ليتمتع بهنَ من لا يعرف الله ولا دينه.. كنت أعرف أبًا حدث ذلك لابنته الوحيدة، أخذها الجنود الصينيون وهي في سن الرابعة عشرة.. ثم وصلته الأخبار أنها تعمل مغصوبة في بيوت العربدة.. مات والدها بسكتة قلبية من فرط قهره..» ردت سيدة أخرى تجلس قريبة منها:

- «كيف لا يفعل يا أختي؟؟ لا يتصوره عقل، ولا يتحمله قلب.. أقلق على ابنتي وهي في غرفة الفحص الآن.. كيف وأنا لا أعلم فوق أي لحاف، وتحت أي رجل هي؟؟»

«أعوذ بالله..»، «لا ابتلانا الله..»، «رباه، لطفك بنا..» أخذت النساء يتمتمن باشمئزاز.

خرجت مليكة إليهنَّ في ردائها الأبيض، كانت كملاك رحمة منزل من السماء - كانت تتدرب على العمل في الطب الأيغوري في عيادة الطبيبة خالدة وتجري أبحاثها - كان صوت السيدات مسموعًا.

مليكة لا تحب التشاؤم إلى هذا الحد، لا تحب أن تبدو الحياة سوداوية إلى هذه الدرجة؛ ابتسمت لهنَّ، سارت باتجاه كرسي شاغر، ثم جلست.

- «أراكنَ سبحتنَّ بعيدًا؟؟.. غرقتنَّ في بحر أسود..»

قالت بتساؤل، ثم عاد الصمت للحظات، ثم أردفت مذكرة:

-«الحل في الحياة.. أن نحيا بأعرافنا وديننا رغم أنوفهم، قاومنَ بعاداتكنَّ الإسلامية، بتاريخكنَّ، بملاحم أجدادكنَّ، لستنَّ نكرة وُجدت على أرض، أنتنَّ من أعرق الأصول، في أطيب الأراضي، اعلمنَ أن الموت سهل للغاية، الحياة أصعب بكثير، إن لم يكن لأجلنا، فلأجل الأجيال التي ستأتي من بعدنا».

نظرنَ إليها بإكبار؛ فهي لم تكذب في شيء مما قالت، حتى بعض الفتيات اللاتي كُنَّ لا يضعنَ الحجاب على شعرهنَ - كالكثير من فتيات تركستان؛ فإما يخفنَ من بطش الصينين، أو قد ذابت مبادئهنَّ في وحل الشيوعية - بدا الحرج ظاهرًا في وجوههنَّ، شعرنَ بأنهنَّ أقل من المقاومة، أقل من أن يحيينَ حاملات مجد أسلافهنَّ، وشريعة ربهنَّ.

* * *

كنتُ في رحلة سفر إلى باكستان؛ فأنا أقوم بزيارتها بشكل دوري إذا لزم الأمر أنا وبعض الشباب الذين أعيش معهم في الجبل، كنا نأخذ بعض نسخ المصاحف، وسجادات الصلاة التي لا تباع إطلاقًا في داخل تركستان، بل زد على ذلك أن الصينيين يقومون بحملات دورية يفتشون المنازل، ويأخذون المصاحف، وسجادات الصلاة، وكتب العلم، وأي شيء له صلة بالإسلام يأخذونه بالقوة، هذا خلاف ما قد يتعرض له مقتني هذه الأشياء، فالصين معطاءة في سنوات السجن التي تفرضها على المسلمين الأيغور كعقوبة، مؤخرًا وضعت السلطات الصينية كاميرات مراقبة في بعض البيوت؛ لتحكم قبضتها أكثر، لتترك عائلات ممزقة، ومجتمعًا تعيسًا، مسلوب الإرادة حتى في أبسط حقوق الاختيار، حتى النساء ما سلمنَ، فالنساء والفتيات المتحجبات يحصلن على نصيبهن أيضًا من العقوبات القاسية.

بينما كنت أتنقل بين المحلات في إسلام آباد حان وقت صلاة الظهر، شعرت بنشوة في داخلي وأنا أردد الأذان، أسمع ما حُرمت منه أذان التركستانيين، نحن الذين اخترنا العيش في الجبال، نقبض على جمرة الإيمان، نسمع الأذان ولكننا لا نملك المعدات المتقدمة من مكبرات صوت تجلجل الآذان، ولا حتى مساجدنا بهذه الضخامة، نحن نجعل من بيوتنا مساجد، نكون سعداء جدا حين نحصل على سجاد يغطي أرضية المسجد بالكامل، في حين ينتشر معلمو القرآن والعلوم الشرعية في البلدان الإسلامية، نعيش نحن العوز لمن يلقن أبناءنا آيات القرآن، من يعلمهم ما يجب عليهم القيام به وما لا يجب، وإن وُجدوا فإما تراق دماؤهم أمام الجميع للعبرة، أو يخفون خلف القضبان، أو يفرون بجلودهم إلى خارج تركستان، وقلة يثبتون ويثبتهم الله.

الشمس ساطعة في هيجان، والشوارع مكتظة، وأبواق السيارات عالية، والروائح الزكية تخرج من المطاعم، وباعة الحلوى، إسلام أباد نابضة بالحياة.

كنت أسير إلى مسجد (شاه فيصل) وهو من أكبر مساجد إسلام أباد، إن لم يكن أكبر مساجد باكستان كلها، كان الناس كالسيل ينجرفون إليه؛ تخللني شعور غامر، هنا لا أحد يضطهدك بسبب هويتك أو عرقك، هنا حيث المسلمون إخوة، الناس بمختلف العرقيات يسيرون جنبًا إلى جنب.

وأنا على هذا الحال أسير بقلبي أكثر مما أفعل بقدميَّ، تحضرني صور الصحابة: أبو بكر بجانب بلال، وعمر بجانب صهيب، كيف أن الإسلام هو لبنة الأساس، والتقوى هي الميزان، لا لون ولا شكل ولا عرق يُؤخذ بعين الاعتبار؛ استوقفتني خطبة الوداع، تخيلته - ﷺ- واقفًا شامخًا يخطب في الناس، وهم من كل حدب وصوب، فيهم الأبيض والأسود والأصفر، ينصتون إليه - ﷺ -، يقول: «كلكم لآدم وآدم من تراب» سرى الانشراح في كل جسدي، وصلت إلى باب المسجد، واتخذت حيزًا أصلي فيه تحية المسجد، ثم أُقيمت الصلاة، وامتلأ المسجد بالمصلين، كنا كأسنان المشط، نقف في صفوف منتظمة كالبنيان المرصوص.

انتهينا من الصلاة، كان بجانبي رجل باكستاني يبدو في الستينات من عمره، شعره أحمر كثيف، لا يلبس البنجابي، كانت عليه بزة رسمية، عرفت فيما بعد أنه كان يعمل في السلك الدبلوماسي، خرجت من المسجد لأكمل عملي، وشعرت بيد تشدني إلى الخلف، كان ذلك الرجل الذي صلى بجانبي، رائحة عطر فاخر تفوح منه، وشعره مثبت جيدًا، حتى بزته كانت تلمع، نظر إليَّ ويده لا تزال ممسكة بمعصمي:

- «أنت من شنجيانج؟؟»

- «من تركستان.. كاشغر يا سيدي..» قلتها بعنف بعد أن شعرت بالغثيان حين سمى بلادي بشنجيانج.

- «أنا في صفك..» همس بالقرب مني، ثم ابتعد عن وجهي قليلًا، وأكمل:

- «باكستان لم تعد آمنة لكم كما كانت..».

لم أفهم، قلبت الكلمات لأجد لها معنى.. عجزت، تجعدت شفتاي، وسكنت الحيرة في وجهي، لم أفهم ما يجول في رأس الرجل تمامًا؛ ابتسم لي، وضغط على معصمي أكثر، ثم دعاني إلى بيته، قال إنه يرغب في الحديث إلي في بعض المسائل؛ شعرت بالارتياح إليه آخر الأمر، صحيح أن تصرفاته كانت غريبة معي في البداية، لكنه يبدو رجل خير، فهمت ذلك من السجدة المطبوعة في منتصف جبينه، كما أن وجهه مليء بالرضى، وعيناه فيهما صدق واضح.

وصلنا إلى بيت في الشارع الخلفي للمسجد، كانت الأشجار كثة من حوله، فيه حديقة خارجية، مرصوفة بأحجار حمراء، هناك سيارة مرصوفة في الجراج، وطفلان يلعبان الغميضة.

تبعتُ السيد إلى داخل المنزل، ثم أدخلني غرفة الاستقبال، كان كل ما بها يشير إلى أنك في باكستان: طريقة الأثاث، والسجاد الملون، وأعلى النوافذ زجاج ملون ينعكس على الغرفة، وصورة كبيرة بها رسم لنهر السند موضوعة في الحائط الأمامي من الغرفة. بعد وقت يسير عاد الرجل وهو يحمل شاي الفواكه، هذا الشاي نشربه كثيرًا في تركستان، نجفف الفواكه، ثم نصنع منها شايًا، كما أننا في الغالب لا نضيف السكر. ربما أراد الرجل أن يجعل من هذا الشاي نقطة انطلاق مشتركة في حديثنا.

- «أهلًا بك في بيتك..» ابتسامة عريضة تعلو وجهه.

- «جزاك الله خيرًا.. على ضيافتك..» رددتها بابتسامة مماثلة.

- «هل هناك أمر ما؟؟..» وجه سؤاله وهو يصب الشاي في كأس زجاجية متوسطة الحجم، الدخان يتصاعد خارج الكأس، والرغوة تتكون في القاع.

- «ماذا تعني؟؟..» بقلق.

- «أعني: لماذا أتيت؟..» ناولني كوب الشاي، وأتبعه بحلوى الحلقوم التركية، حلوى تصنع من هلام النشا والسكر.

- «لديَّ بعض الأعمال هنا..» أجبت وأنا أتناول منه قطعة حمراء.

نهض من على الأريكة وذهب إلى طاولة فيها بعض الأدراج بجانب مكتبة مليئة بالكتب، بحث هنا وهناك، ثم أخرج ورقة مقطوعة من إحدى الجرائد، عاد وجلس على الأريكة التي أجلس عليها؛ أراني ورقة منزوعة من صحيفة (ذ نيوشن) الباكستانية التي نشرت تصريحًا لوزير الدفاع الباكستاني في بكين:

- «وجاء فيه أن بلاده قد تمكنت من تصفية واجتثاث كل المقاتلين الأيغور الموجودين على أراضيها من أتباع حركة تركستان الشرقية الإسلامية، بمن فيهم زعيمهم، وأن باكستان سوف تبقى متيقظة للحيلولة دون عودتهم مجددًا، وأنه لا خلافات إطلاقًا بين بكين وإسلام آباد حول مبدأ التخلص بكل الوسائل من هذه «الآفة» على حد قوله..».

اسودت الدنيا أمامي، وشعرت بأنفاسي تتثاقل، اختلطت هذه الأحرف والكلمات بمشاعري الجامحة في مسجد شاه فيصل فغلبتها، لِمَ سرقت فرحتي أيها الرجل؟ لِمَ لَمْ تتركني في حلمي الجميل؟ لِمَ لَمْ تترك صورة باكستان ساحرة في مخيلتي؟ ما قيمة الأذان والمصلين؟ ما قيمة الصفوف المتراصة؟ ما قيمة الأجساد المتلاصقة حين تكون القلوب متنافرة؟ «الآفة!!» رددتها بحرقة، من يطالب بحريته في اختيار دينه وعقيدته وممارستها يصبح آفة في نظر هؤلاء! لم أتمالك نفسي؛ بكيت، بكيت بحرقة، بكيت بنفس الحرقة التي بكيت بها قبل اثنتي عشرة سنة، حينما كان قلبي ما زال ينبض، قبل أن يغزوني جليد القلب.

- «عليك أن تغادر.. قد يشكون بك.. أو يوشي بك أحدهم.. حدث هذا للكثيرين الذين يأتون إلى هنا من الأيغور.. حتى الطلبة في الجامعات الباكستانية من الأيغور يرحلون..»

كانت عيناه قد امتلأت بالدموع؛ شعرت بحرارة مشاعره، ولمحت الحزن في لمعة عينيه، كان مناصرًا لنا كبقية الشعوب المسلمة، لكن الحكومات لم تفعل في زمن السياسة المبنية على المصالح قبل الأخوة؛ عزمت على الرحيل، وأخذت أغراضي، وعدت إلى حيث أنتمي، هذه كانت أطول رحلة عودة من باكستان إلى الجبل.

* * *

في الساعة السادسة صباحًا كان شيان متكورًا على نفسه كجنين في بطن أمه، يشد رجليه بمعصميه بقوة، ويضع رأسه على ركبتيه، كان جسده يرتجف، وكانت عيناه محمرتين، لم يستطع النوم بشكل جيد، كان عقله مشوشًا، كان يرى كوابيسًا طوال الليل في حين غفت عيناه، أخذ المذكرة الموضوعة بجانبه، كان قد سمع من بعض زملائه أن الكتابة أمر جيد في أوقات الضغط النفسي؛ حاول الإمساك بقلمه، وفتح المذكرة، استوقفته الجملة المكتوبة بخط ليلك مرة أخرى:

«قلبك بوصلة حياتك، وهو مفتاح ماضيك ومستقبلك».

كانت ليلك تجفف وجهها في حين سمعت رسالة نصية تصل إلى هاتفها المحمول؛ سارت لتراها بلامبالاة، أمسكت هاتفها وعيناها لا تزال ناعستين، أمسكته بإحدى يديها، بينما كانت تغلق بالأخرى فمها، تمنع نفسها من التثاؤب، توسعت حدقة عينيها وهي تقرأ اسم شيان على شاشة الهاتف، «أحتاجكِ..» ارتدت ملابسها، ربطت جراح يدها بضمادة بيضاء في عجلة، ثم خرجت مسرعة، كانت قد جرحت يدها وهي تغسل الأطباق في المقهى الذي تعمل فيه.

كان شيان يبدو منهكًا، قواه تتهالك، عيناه محتقنتان، ومحمرتان، يعلو وجهه حزن عميق؛ ركضت ليلك نحوه قلقة، سألته عن حالته هذه، لم يُجِبْ.

- «أريد أجوبة لأكون بخير..».

- «شيان.. لا تثقل على نفسك.. لم أقصد أن تصل لهذا الحال..».

كل الكلمات لا تستطيع أن تخفف ألم إنسان لا يعلم ماضيه، ويجهل ماهيته وكيانه، يجهل الغاية من وجوده، ويعيش فاقدًا للهوية.

على كرسي في محطة انتظار قريبة منهما ارتمى شيان، أخبرته ليلك أن عليها أن تأخذه إلى منزلها؛ فأختها ستهتم به، قد يشعره ذلك بالتحسن، لم يكن هناك مجال للرفض.

التقى الثلاثة على طاولة واحدة يحتسون الشاي، شيان يتكئ بمعصميه على الطاولة، ليلك تعبث بخصلات شعرها وهي غارقة في التفكير، خاتون تتوشح بقماش أحمر، فلا يظهر من شعرها شيء، ترتدي رداءً أسود بأكمام طويلة، على أطرافه نقوش حمراء تتناسب مع درجة لون الوشاح، وجه مدور كالقمر، وحواجب كأجنحة الصقر تعلو عينيها الشفافتين، الوقار بادٍ عليها، تجلس بقامة مستقيمة تتأمل شيان الذي تملكته الهيبة من هيئتها؛ ففضل أن يلزم الصمت.

-«هل لديك مشكلة؟؟»

نظر إليها الآخران وحَدَّقَا نحوها، كانت خاتون قد بادرت بفتح النقاش.

- «يشعر ببعض التيه.. لديه مشاكل في ماضيه..» أجابت ليلك، حينما تلعثم شيان، ولم يستطع الرد.

- «ربما هو ذاك..» قالها بحرج.

- «متى يشعر الإنسان بالتيه؟؟.. عندما لا يكون له من يلجأ إليه.. عندما لا يجد قضية مقدسة يعيش من أجلها.. عندما تقتصر أنفاس حياته على أمور حيوانية.. ينطفئ المرء عندما تنطفئ روحانية قلبه.. فكر في هذا الأمر ستجد بغيتك.. لا يهم ما كنت عليه سلفًا.. ما يلزمك هو أن تهتم باللحظة الحاضرة.. وأن تبني مستقبلك على أساس متين.. هذا أيضًا ما أحاول زرعه في ليلك حتى لا تنسى من تكون في وسط الحياة المادية البحتة..»

خرجت كلماتها بكل هدوء، قالتها وهي تشعُّ نورًا، تملأ المكان سكينة، كانت تحتضن بكلماتها قلبيهما.

شيان يتأمل بعمق، يسمع كلامًا غريبًا لأول مرة، هذه الأمور لا تُقال هنا في الصين؛ تملَّكه الخوف، وتخللته الراحة في نفس الوقت، الخوف من الخروج عن المعتاد، لا دار أبيه الفظِّ، ولا المساكن الجامعية التي عاش فيها كانت تحتوي على أشخاص يتكلمون كلامًا روحيًّا، الروح مهملة جدًّا في هذا البلد، في الإمبراطورية الصينية العريقة عليك أن تبقى تحت القانون، ولا تحاول الخروج عنه، أن تفعل ما تؤمر به، وتعيش كيفما تشاء، لكن خاتون تملك سحرًا في كلامها يملأ فجوات القلب، ويضع البلسم على الجرح.

- «كيف يجد الإنسان الروح التي فقدها؟»

وَجَّهَ سؤاله بصوت حائر، خطف نظرة من خاتون، ثم عاد ينظر إلى قبضة يديه المعقودة أمامه.

- «عندما تجد من تدعوه.. من يكون لك ملاذًا في حين تقف أمامك المصاعب.. الامتلاء الروحي في وجود قوة أكبر منك تحميك..».

التفتت خاتون لتنظر إلى شيان، وهو يراها بمشاعر مضطربة؛ كادت تسمع دقات قلبه، كان يمسح قطرات العرق المتناثرة على جبينه بكمه، لم يفكر أبدًا في اعتناق دين.. حتى إن أحدًا لم يقترح عليه هذا الاقتراح من قبل، كان الإلحاد هو كل ما عرفه، لم يكن ليهتم لوجود إله يدبر أمره.

مَرَّتْ ذكريات عدة في مخيلته؛ شعر فيها أن هناك من كان يساعده في لطف خفي، هناك قوى فوق بشرية كانت تخرجه من مآزق محتمة، في المرة التي نجا فيها من الغرق في إحدى رحلات المرحلة الابتدائية، كان في حوض كبير للسباحة، قفز إلى الماء بسرعة، وأصابته نوبة سعال؛ فدخلت قطرات من الماء إلى حلقه؛ زاد سعاله أكثر وأكثر، المياه تتدفق في أنفه؛ أُصيب بالشرق، حاول أن يستجمع قوته لإدخال الأكسجين إلى رئته التي فقدت كل ما تحمله من هواء، لكن لا فائدة، أنفه وفمه ممتلئان بالماء، خارت قواه في الماء، وتراخت أعصابه، حينها كان شيء في داخله يقول: «أنقذني..»، ثم نجا؛ لأنه أنقذه.

- «روح الإنسان كنافذة تحتاج إلى التنظيف المستمر؛ حتى يدخل إليها الضوء؛ وإلا تصبح بقعة عمياء لا تُطاق..».

خاتون كانت تجيب على استفسار قلبه الذي لم ينطق به بعد أن رأت الحيرة تسكن عينيه.

- «أصعب من أن تكون حيوانًا أن تكون آلة.. وهذا ما تسعى إليه الشيوعية.. تحويل الناس إلى أدنى من المنزلة الحيوانية»

قالت ليلك وهي تشدُّ على الأحرف كأنها تستلذ انتقادها للسياسة الصينية.

-«لن أُطيل أكثر شيان.. كما أنك متى أردت أن تدلي بدلوك الحزين، يمكنك أن تأتي إليَّ.. يسعدني جدًّا أن أكون أختًا كبرى لك..»

قالتها بابتسامة عذبة غير متكلفة؛ سبقها صدقها إلى قلب شيان، لم يشعر بمشاعر جميلة كهذه من قبل: دفء العائلة، وحضن الأخوة، الروح لا تملؤها قطع الخبز، المشاعر الصادقة تفعل.

بينما خاتون تعد اللغمن بقطع الدجاج؛ كانت ليلك تُرِي شيان بعض صور الاضطهاد في السياسة الشيوعية، وكيف أنها

أيدلوجية مرتكزة على تذويب المعتقدات والحضارات، تبيد الاختلاف الذي هو سنة من سنن الحياة، ثورات هوجاء ضد الأديان، تُقَوْلِبُ البشر في قالب واحد، تجعل الجميع يسيرون وفق قوانين يضعها أشخاص بعقول قاصرة التفكير، يُنشئون الشعوب بعقول تابعة لا تسمع ولا تبصر، والفروع التي تحاول أن تخرج عن مسار هذا السياسة ببساطة تُكسر؛ شعر شيان بانجذاب كبير لأفكار ليلك، انسجم مع كلماتها، وبدا يُصغي إلى شرحها باهتمام، ويلتمس لنواقصه فيها الاكتمال؛ قاطعتهما أطباق خاتون الشهية، وهي تُرصف أمامهما على الطاولة كفاصل لذيذ، وكما كانت أطباقها لذيذة؛ كانت كلماتها كذلك، حانية ومشرقة، تمامًا كإشراق المستقبل الذي تتمناه لهما.

في غمرة من السعادة، يقف شيان على عتبة باب العمارة، بعد يوم متعب مريح، وتتبعه ليلك مودعة إلى الخارج، وقبل أن يرحل التفت إليها وهو يتأهب للخروج.

- «جعلتِ مني أسعد إنسان في الكون هذا اليوم..»

قالها متحاشيًا النظر في عينيها.

«لأجلك.. ألف مرة أخرى..» بصوت مهموس يكاد لا يُسمع.

* * *

في ساعة متأخرة من الليل طرق أحدهم منزل السيدة عائشة، كان الوقت غير مناسب لمجيء الزوار، لم يكن الطرق عنيفًا، كان عبارة عن طرقات متفرقة، بعد مدة ليست يسيرة من الزمن، وبعد تردد كبير فتحت المرأة باب بيتها بيدين مرتجفتين، كان الخوف مسيطرًا عليها، بدا ظاهرًا في نظراتها، وترقبها، وتقلب عينيها، في رعشة جسدها، وفي أنفاسها المتلاحقة؛ إذ إن دوريات الشرطة لا تنفك تأتي بيتها لتفتش عن ابنها الذي أُتهم بالتعاون مع مجاهدي تركستان ضد السلطات الصينية، وهذه تهمة عواقبها غير محمودة البتة.

في العادة دوريات التفتيش لا تتسم باللطافة عند اقتحام البيوت في أي ساعة يأتون فيها من ليلٍ أو نهار، يحدثون جلبة يسمعها الحي كله، يكسرون الأبواب، ويطلقون النار، ويدفعون الأجساد، ويتقاذفون بالممتلكات، لكن هذه المرة كان الطارق لطيفًا، إن لم يكونوا هم فمن سيكون في مثل هذا الوقت؟! فتحت المرأة الباب ببطء شديد، وشيئًا فشيئًا دخل ضوء خافت من إنارة الشارع؛ فانعكست على وجه السيدة عائشة. كانت امرأة بملامح أيغورية أصيلة، بعينيها المسحوبتين، ووجهها المستدير، كانت هيئتها تحمل سحنة أيغورية إلى النخاع، كانت الخصلات الرمادية المتناثرة من شعرها تخرج من وشاحها الأخضر الذي تغطي به رأسها، وتشده من جانبي رأسها ممسكة به أسفل الذقن، كأنها لبسته على عجلة فلم تلفه جيدًا، لم يداهمها الشيب كثيرًا، لكنها لم تعد شابة أيضًا، خسرت بعض الكيلوات من الوزن، لكنها لا تزال بدينة.

عينا المرأة الناعستان كانت تتفحص زائر الليل الذي أقلق مضجعها محاولةً التعرف عليه؛ كان شخصًا يرتدي معطفًا جلديًا أسود برقبة طويلة، يغلقه بشكل كامل؛ فأخفى به نصف وجهه من الأسفل، كما يرتدي خوذة داكنة اللون تخفي غرته، يكاد يكون الشيء الوحيد المكشوف منه عينيه؛ تأملته بشيء من الرعب والشغف، لم تخطئه عيناها؛ رفعت يديها تخفي ثغرها الباسم، دموع الفرح قفزت إلى عينيها كما قفزت هي على ابنها الغائب؛ وثبت إليه لتحتضنه وتقبله، اعتصرت

جسده النحيل بين جنبيها، لا شيء يطفئ لهيب أم تفتقد ولدها، الأمهات شوقهن مختلف، كما كل شيء فيهن لا يمكن تعويضه؛ لم تنطق ببنت شفه، استكفت برائحة فلذة كبدها عن كل كلمات العتاب، وتركت سيول عينيها تنسكب في حال سبيلها.

كان اللقاء دافئًا في لحظات معدودة، لكنها كانت بالنسبة لعبد الحق خواجة وأمه مئات السنين؛ فهكذا حال أبناء تركستان الذين لم يخضعوا للتذويب العرقي، واختاروا المقاومة على الخنوع، وحال أمهاتهم كأمواج البحر، ما إن تلتقي بالشاطئ حتى تختفي، يكتفينَ بلحظات خاطفة بين شهور وسنوات طويلة من القلق والشوق والحنين.

بعد أن أرخت السيدة عائشة قبضتها من على عبد الحق؛ انحنى وقَبَّلَ يدها، ووضعها على جبينه احترامًا وتبجيلًا، ثم وضع قصاصة في باطن كفها، وشيئًا مربعًا ملفوفًا بقماش أسود.

- «لا أستطيع البقاء طويلًا يا أمي..»

كان يحبس قهره في صدره، ويدفع غصته بأحرفه التي تقاتل لتخرج، ويتحدث بهمس.

- «لم أعد أحتمل يا ولدي.. لنذهب إلى مكان بعيد.. مكان لا يوجد فيه ألم ولا فراق..»

اغرورقت عيناها بالدموع، ثم كتمت تأوهها بيدها؛ خشية أن يسمعها أحد:

- «متى سأراك أبًا.. ها؟ أَوَلَا يحق لي ذلك؟»

- «يحق، وكيف لا يحق؟.. لكن لدي بعض الأعمال لأنهيها أولًا..».

- «تكلمت مع سليم بشأن مليكة.. سَرَّهُ الأمر كثيرًا.. كما أنني في كل مرة أراها؛ ينشرح قلبي لها أكثر..»

سرحت عيناها في مستقبل جميل، وتخيلت ابنها الوحيد عريسًا تُزَفُّ إليه أجمل البنات، وأطيبهن أخلاقًا.

- «ليكن خيرًا بإذن الله».

لم يستطع إخفاء فرحته الغامرة حتى تحت المعطف الجلدي، عانق أمه مجددًا، ثم ذهب من حيث أتى.

في الحياة الدنيا لا توجد سعادة سرمدية، كما لا يوجد حزن أبديٌّ في عتمات الليل، هناك نور خفي، وفي وضح النهار قد يدب الخطر، أما عن هذه الليلة في كاشغر، فقد اجتمع ظلام الليل وسوء الغدر؛ ليكونا مزيجًا أسود في قدر عبد الحق لأمر كان مفعولًا.

عندما أصبح الشاب في أطراف المدينة يهمُّ أن يدخل في غيبته التالية، بعد أن أنجز مهمته، وروى عطش فؤاده من أمه الحزينة، فطمَّن واطمأن، وبينما هو يقود مركبته للبعيد، لم يشغل باله إلا اللحظة التي نبض قلبه فيها لمليكة، تلك الفتاه القوية، كانا يدرسان في الثانوية نفسها إلى حين نعتتها معلمة تُحسب على الحزب الشيوعي الصيني (بالرجعية)؛ لأنها كانت تضع الحجاب على رأسها - قد كانوا يأتون بالمعلمين والمعلمات من هذه الشاكلة للتعليم في تركستان بهدف تغيير مفاهيم أبنائها، وثنيهم عن دينهم وأعرافهم، أو لما يسمونه بالتوعية العامة لمقاطعة (شنجيانج) - عاد يتذكر نظراتها الحادة،

وعنادها، وقوتها أمام تهديد المعلمة لها، بالرغم من أنها ذاقت الويل نتيجة وقوفها ضد الطوفان الشيوعي بجراءة؛ مما حرمها إكمال تعليمها النظامي؛ فاضطرت أن تتجه إلى الطب الأيغوري الذي يدرسه أطباء أيغوريون في معاهد خاصة. مَرَّ عليه طيفها، وملامحها الغاضبة، وصوتها المرفوع كالموج الهادر أمام تلك المعلمة:

- «اذهبي إلى أرضكِ، وتحكمي ببنات بلدكِ.. هنا تركستان أرض إسلامية، شئتِ أم أبيتِ..».

تداخل صوت الرصاص مع صوت مليكة في مخيلته، فجأة أخذت السيارة تبطئ أكثر فأكثر؛ حتى توقفت، الليل لا يزال مخيمًا، لم يستطع أن يرى شيئًا إلا ضوءًا قويًّا آتيًا من سيارات تابعة للسلطات الصينية، تسير خلفه مباشرة، يبدو أنهم قد أطلقوا عدة رصاصات على إطارات السيارة؛ لذلك توقفت. كان الرعب قاتلًا؛ تجمد عبدالحق في مكانه؛ فلا حيلة لديه، كما أنه لم يعد يستطيع إبراز هويته المزيفة؛ لأن أمره قد انكشف، وهذا لن يزيده إلا وبالًا.

كان قد تجنب الدخول إلى منزل والدته؛ خوفًا من الكاميرات المركبة في كل اتجاه منه، لكنه كان غافلًا عن احتمالية وجود أعين للتجسس في الخارج؛ فالذين يبيعون أنفسهم برثمنبيات(1) معدودة كُثُرٌ، قد تمتلئ بها جيوبهم، لكن أرواحهم لا تزيد إلا فقرًا وذلةً.

خرج عدد لا بأس به من رجال الأمن من سياراتهم؛ ليحاصروا عبدالحق الذي لم يحرك ساكنًا، واكتفى بالتقوقع على نفسه، لم يكن هناك متسع لردة فعل يقوم بها لينجو إلا قليلًا من المقاومة التي لن تغني ولن تسمن من جوع؛ كبلوا يديه بعنف، ووضعوا لجامًا على فمه، ثم غلفوا رأسه كاملًا بكيسٍ قماشيٍّ، كل هذا وعصيهم تهوي على ظهره وأجزاء مختلفة من جسده، وأفواههم مليئة بالضحكات الساخرة، والألفاظ البذيئة.

كان الألم لا يُطاق، لكنه كان أشبه بمكسرات العيد بالنسبة لما سيراه لاحقًا، سارت به إحدى السيارات طويلًا، كانت لحظة اعتقاله خاطفة؛ فلم يستطع أن يفكر في طريقة للخلاص، أو أن يحدد اتجاه أو مدة الطريق الذي يسير فيه، ثم اختفت السيارة التي تقله إلى المجهول، والسيارات الأخرى تتبعها في الظلام الدامس.

انقضى الليل بما فيه، فالشمس لا تغيب لألم أحد، ولا تضرب عن الإشراق تضامنًا مع حزن أحد، العالم يسير بعجلته إلى الأمام كعادته. نهضت مليكة بنشاطها المعتاد، برغبتها الجامحة في العطاء، وكالعصافير حين تخرج من عشها محبة للحياة، خرجت مليكة بحماس ليوم جديد، في طريقها لعيادة الدكتورة خالدة للطب الأيغوري التي تقوم بالتدرب فيه، سارت بين الأزقة حتى شَدَّ انتباهها ثلاثة شبان يتحدثون في زقاق من أزقة الحي الذي تقطنه، لم تستطع أن تراهم، لكن بعض كلمات من حديثهم اخترقت أذنيها، كان أحدهم سيد الحدث، وكان صوته منتشيًا، يتحدث قليلًا، ثم يصمت برهة، يرشف رشفة عميقة من سيجارته المحوطة بأصبعه الإبهام، ويكمل وهو يتأرجح من الضحك، كلماته متقطعة، والآخران يبادلانه الضحكات الساخرة، كان ما لفت انتباهها بعض الكلمات المتقطعة التي شعرت بأنها تشير لأمر ما قد حدث.

- «يظن نفسه بطلًا.. عقابه.. عبدالحق خواجة.. مسكين.. يستحق.. ضد التيار.. لا تستطيع..».

غزتها الهواجس من كل حدب وصوب، ظلت عينا الفتاة متسعتين، قلبها يكاد يقع على الأرض، ويدها تتحسس حنجرتها التي أصبحت كقطعة خشب تالفة، كل الهواء الذي في صدرها تحجر، صارت تسير بخطى ثقيلة وبطيئة إلى منزل السيدة

عائشة، شيء في داخلها ينذرها بالخطر، وآخر يخبرها بأنها مخطئة، «إنها مجرد أحاديث بين شبان لا معنى لها.. لا شيء يدعو للقلق..» كانت تطمئن نفسها، وعلى هذا النحو سارت حتى وصلت لمنزل بطابقين مطليٍّ باللون الأخضر، تتبارك كثيرًا بهذا اللون السيدة عائشة، تقول إنه لون الجنة.

طرقت مليكة الباب، لكنها لم تكد ترفع يدها من الطرقة الأولى حتى فُتح الباب، كان وجه السيدة عائشة مشرقًا أكثر من عادته، وفتحت الباب على مصراعيه كأن مليكة كانت ضيفًا منتظرًا، احتضنتها بحنان، وقَبَّلَتْ وجنتيها.

- «كنت سآتي للعيادة اليوم لأراكِ.. يقولون: القلوب تشعر ببعضها»

كانت متحمسة كثيرًا للحديث على عكس التي تأكل الأفكار السوداء قلبها، كانت تبتسم بابتسامة باهتة لا لون لها، محاولة أن تكون على طبيعتها، ولا تثير شك المرأة المسكينة؛ فتفسد فرحتها قبل أن تتثبت من الأمر.

- «آآه مليكتي لم أخبركِ.. خمني من جاء لزيارتي البارحة؟»

ثم شعرت بأنها قد تعجلت؛ فالكاميرات تطرز منزلها، هكذا جميع بيوت العائلات التي يشكون في أحد أفرادها؛ يرغمونهم على وضع كاميرات المراقبة، يقتحمون حرمة البيوت وخصوصيات الحياة الشخصية؛ فاكتفت بالصمت، وقدمت إليها قصاصة ورقية صغيرة كانت مهترئة، تدل على رحلة طويلة لحاملها، فهمت مليكة أن عبد الحق كان هنا ليلة البارحة، وأنه أعطى والدته هذه الرسالة، فأمه لا تستطيع القراءة؛ فلن تكون لأحد سواها؛ دستها في جيبها، ثم أخذت القماش الملفوف، وبحيلتها وفطنة عقلها تخلصت من السيدة عائشة دون أن تخبرها بشيء، وخرجت بعدها إلى طريقها.

كانت شمس الصباح الساطعة تداعب عينيها، تحاول أن تسترضيها، وتواسيها في مصابها، ثم توقفت قليلًا، وأخرجت القصاصة المدسوسة في جيبها:

**«أخبروا حوريتي أني بها على لقاء..**

**وأن جسر الأمنيات سيسمح بالوصال..**

**فإما معًا على طريق الجهاد..**

**وإما شرابًا من كأس الشهادة..»**

(ع. ح)

اختلطت المشاعر في قلبها، فجزء من السعادة أتى مع القماش الأسود، والكثير منها ذهب مع عبدالحق؛ صمتت؛ فأحيانًا تضيع الكلمات في غياهب المواقف العظيمة، والصمت أمام قداسة الكلمات وأصدق الكلام؛ فالقلوب تفهم بعضها، وصدق المشاعر فوق المساحات الشاسعة، فوق المكان والمادة، وأمور الروح لا تُدرَك، كما أن الروح من أمر ربها.

* * *

١ رينمينبي: اسم للعملة الصينية.

# الفصل الرابع

الشمس ساطعة، والرمال ساكنة، في صحراء (تاكلامكان) خارج (توهان) غرب الصين حيث الصمت المطبق، المنطقة خالية تمامًا من أي مظهر عمراني سوى من مبنى ضخم مهيب في المنتصف، عليه كتابات باللغة الصينية، مكتوبة باللون الأحمر ترسيخًا لمبادئ الإمبراطورية الحمراء؛ فالصين وإن كانت جمهورية إلا أنها لم تتخلَّ عن سيطرة الإمبراطوريات وأساليبها العتيقة.

أسلاك شائكة كثيفة تكوِّن سياجًا ضخمًا يحيط بالمبنى، تحاول الكثبان الرملية أن تداعبه بذراتها، لكن هيهات للصخور القاسية أن تتلاطف، التناقض يولد من هنا، الداخل والخارج، الضوء والظلام، الصمت والصراخ، الكلام والأفعال.

هذا المكان عبارة عن أكبر إنتاجات الصين قساوة، هنا يدخل الناس بشرًا، ويخرجون أشباه كائنات، إنه معسكر (ماجور)، تحتجز الصين فيه مئات الأيغوريين، وما هو إلا واحد من مئات المعسكرات السرية في أوساط الفيافي المنسية، الناس فيه ليسوا أكثر من مادة خام في مصنع كبير، يُصهرون، ثم يُوضعون في قوالب، ثم يُنتَجون كما يريد المُنتِج، يأخذون دروسًا مكثفة في القانون، واللغة الصينية، يُعَلَّمون الولاء للحزب الحاكم الشيوعي، ويرددون الأغاني المبجلة للسياسة الصينية، يكتبون مقالات النقد الذاتي، ويتطاولون على دين الإسلام الذي هو دينهم، وأي موروث له صلة بالعرقية الأيغورية بأقبح الألفاظ، وأسوأ الأوصاف، هنا لا تُغسل الأدمغة فقط، بل تُغسل الأرواح من الإنسانية، هنا لا يولد الحيوان، بل تُستأصَل آثار الحياة منه؛ حتى لا يكون الجسد أكثر من آلة.

في غرفة صغيرة مظلمة، درجة الرطوبة فيها عالية، في منتصفها كرسي من أخشاب متعفنة أكلت منها دابة الأرض؛ فأصبحت مليئةً بالثقوب، يجلس عليها عبد الحق مُكَبَّلَ الأيدي والأرجل، ومعصوب العينين، وخوف موغل في أعماقه، حول عنقه حبل موصول بكتلة صخرية تجبره على أن يكون منحنيًا إلى الأسفل؛ مما يسبب له ألمًا شديدًا في عموده الفقري، ظَلَّ كذلك زمنًا لم يُحْصِهِ إلى أن شرف اثنان من العساكر لضيافته، فتح أحدهم عقدة الحبل الذي في عنقه، وجعلاه يمشي وهو يترنح من ألم ظهره إلى غرفة في آخر الممر، كانا يدفعانه دفعًا للأمام كي يتحرك، حين وطئت أقدامهم غرفة التحقيق؛ نزع الذي على اليمين العصبة من عينيه، كان الضوء أكبر من أن تتحمله عيناه؛ فهو لم يعرف النور ليومين كاملين، كان ضوء الغرفة ساطعًا جدًّا، وخلاف ذلك وُضِعَ على كرسي أمام طاولة بها أجهزة إضاءة تُوَجَّهُ إلى وجه السجين كنوع من التعذيب، كان الوهج فوق مستوى التحمل؛ أغمض عينيه، لكنه فتحهما بذعر حين باغتته صفعة على وجهه من رجل يجلس خلف الطاولة، كان رجلًا بدينًا بوجه قاسٍ، يلبس بزة عسكرية خضراء، شعره أسود لامع، مُسَرَّحٌ إلى الخلف، كانت عيناه مليئتين بالخبث، تعلوه ابتسامة صفراء تنم عن المكر.

«عبد الحق.. شفرة الإرهاب..» كانت عيناه الضيقتان تتفحصان وجه الشاب؛ حتى إنها تكاد تخترقه «الشاب البطل.. الذي ظلت السلطات الصينية تنقب الأرض لتجده طوال أربع سنوات.. يجلس أمامي.. عجزت كل تقنيات المراقبة الصينية عن الإتيان بك.. لكن» وبدأ يضحك ساخرًا، مُلِئَت الغرفة بصدى ضحكاته «أصدقاء الطفولة أتوا بك في أقل من ساعة» وعاود نوبة أخرى من الصراخ؛ كان قلب عبد الحق يخفق بقوة، لم يفهم القصة، هو هنا على أي حال، من أتى به هذا أمر لا

يهم، النتائج واحدة في آخر الأمر.

«نحن لن نعاملك كأي نزيل هنا.. نود أن نعرض عليك صفقة.. تعطينا أسماء الذين كنت تعمل لديهم.. تستجيب لدروس المخيم التوعوي.. تكتب تعهدًا بالولاء للأمة الصينية.. ثم تذهب إلى حضن والدتك الدافئ، ما رأيك؟».

كان يجلس معتدلًا على كرسيه، ينظر باتجاه عبد الحق الذي أحرقته الإضاءات الموجهة نحوه، كانت دموعه تسيل تحت تأثيرها، ثم بحركة من يده على زر بجانبه أطفأ الإضاءات، «هكذا أريح..» وأخذ يقدم بيده ورقة عليها قلم لعبد الحق الذي كان صامتًا طوال الوقت، لكن عقله يكاد ينفجر من الأفكار المتسارعة التي تنهال على خلايا رأسه، مَرَّتْ صور كثيرة في مخيلته، القائد مسلم باتور، وسليمان كتشاري، والشيخ يحيى خان، تذكر الكوخ القريب من أقسو، دار الشيخ أبي محمد، تناثرت الأسماء أمام عينيه، ثم نفض رأسه بعنف، وأخذ يلم أفكاره، وتذكر صوت القائد مسلم في أول لقاء له به حين عنَّفه الشيخ على استعجاله في استجلاب النصر، وأخذ يردد آخر آية في سورة العنكبوت: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾

«ألن تكتب؟» كانت نبرته مهددة أكثر من كونها استفسارية، ثم أشار بيده للأعلى، لم ينتهِ من رفعها حتى باشر الاثنان الواقفان عن يمين وشمال عبد الحق بتقديم ترحيب حارٍّ للنزيل الجديد، كان ترحيبًا مليئًا بالدم، كانت العِصِيُّ الحديدية تهوي على جسده بقوة؛ فترتد العِصِيُّ بمفردها للأعلى بفعل الارتطام، وعروق الشاب تحولت إلى امتدادات قلب، كانت تنبض بشكل هستيري، كانت لحظة سريالية بالنسبة لعبد الحق؛ العرق يقطر من كل خلية في جسده، والدم يتناثر من حوله مع كل ضربة، حتى صرخاته كانت متقطعة، كان الموقف أكبر من أن يُعاش.

بعد أن قبض البدين كفه المبسوطة في الهواء؛ عاد العسكريان إلى وقفتهما السابقة.

«هذه كانت تعليمات النزول.. أيها الضيف..» ببرود شديد؛ حتى إنه كان يتثاءب؛ فالجلسة لم تُثِرْ حماسته على ما يبدو؛ لملم بعض أوراقه، وأمر بإعادة عبد الحق، وهو عبارة عن كومة من اللحم الممزق.

في زنزانة صغيرة ينكمش عبد الحق على نفسه، جسده مليء بالأخاديد التي يجري الدم فيها، اختلط شعره بدماء نازفة من رأسه، تحجرت حتى أصبح رأسه كالقنفذ، وفي عينه رجاء أخرس، وفي طرف الزنزانة شمعة تنعكس في أحداق هذا الرجاء.

هنا لا تسير الأمور بانسيابيتها المعتادة، الوقت يمضي ولا يمضي، أكانت هذه نفحة من نفحات الجحيم؟ حاول أن يُسكن من روعته قليلًا، أغمض عينيه، وغط في غفوة صغيرة؛ أصوات اصطكاك قوية أرجعته من غفوته التي لم تكن إلا انعكاسًا لواقعه، عِصِيٌّ، ودماء، وبكاء، وأنين، فتح الباب عليه ثلاثة عساكر.

«تحقيق» صرخ في وجه عبد الحق؛ فنفض آثار النوم من عينيه.

وساروا به إلى غرفة ذلك البدين مجددًا، كانت رجلاه تسير إلى الأمام، أما قلبه فقد كان يغوص في جوفه، يأمل في حدوث معجزة تنقذه.

هذه المرة رصف المحقق أدوات غريبة على الطاولة: مقصًّا، وساطورًا، وعِصِيًّا ملتوية، وأمورًا لا يعرفها الناس خارج حدود

المعسكرات التأهيلية. تأهيل في ماذا؟؟ في التجرد من الإنسانية! حتى الكرسي كان مختلفًا، به أيدي على الجانبين، أُجلسَ على الكرسي، حاول تحاشي النظر في عين البدين؛ وظَلَّ ينظر إلى رجليه.

- «هل فكرت جيدًا في العرض؟..» كان يُقَلِّبُ كماشة بيده.

- «نعم..» بصوت متعب.

- «إِذَنْ؟..» كان قد ترك الكماشة في مكانها، ورَكَّزَ النظر في عبد الحق، يريد أن يحقق جولة أخرى من الانتصار، يقهر إنسانًا، يرغمه على الاعتراف بما لا يريد، كم تكون هذه اللحظات لذيذة في حياة الساديين!

- «أنا لا أخون ما أؤمن به.. ما أنتمي إليه.. إن أفنيت روحي أو حتى أرواح الآلاف منا.. لتعلم أنه لا أحد يستطيع أن يمسح بلد بمساحة ٨٠٠١ مليون كم٢..»

كانت أنفاسه تتقطع، كان يشد على يديه حتى تجرحت بسبب الأغلال الحديدية الضيقة، ربما سيُنسى أثره، وتنتهي أيامه، وتندثر أخباره، ربما لن يعلم أحد بما حَلَّ به، وما عاناه، لكنه لن يسمح لنفسه أن تفارقه وهو خائن، على الأقل لتكون هذه الكلمات في وجه الضابط المظلم شرفًا يلقى بها والده الذي لا يتذكره، ولا يعرف عنه إلا أنه كان بطلًا شامخًا أذاق العدو مرارة العلقم، إلى أن أُحرِق حيًّا لمناهضته للاحتلال الصيني.

كانت الأخاديد تشعل في القرى؛ ليُلقى فيها كل من يبدي اعتراضًا أو رأيًا مخالفًا لسياسة الاحتلال الإلحادية، لم يختلف أسلوب الصينيين كثيرًا، طَوَّروا من وسائل تعذيبهم فقط.

لم يحتمل ضابط انكسار أنفته من شخص لا يملك حتى سلامة روحه؛ ضحك ضحكة هستيرية مجنونة، تنم عن نزعة عدائية حيوانية، أخذ كماشته بحركة خاطفة، ونهض كثور هائج باتجاه عبد الحق الذي أغمض عينيه، وأخذ يرتل ما يحفظه من آيات، أخذ العساكر يفتحون أغلاله، ويربطون يديه على أيدي الكرسي؛ اضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه، ارتعش كل عضو في جسده، تملكته رهبة عارمة؛ بعد أن وضَّبَه العسكر لحفلة صراخ جديدة، بدأ أكبرهم بنزع أظافره واحدًا تلو الآخر، لم يسأله أو يكلمه في قضية معينة، تلك الجلسة التعذيبية لم تكن لنزع اعترافات أو ما شابه.

كانت جلسة مفادها الأول والأخير كسر أنفة، وانتقام ذاتي، وتعديل مزاج؛ كان الشاب بين يديه يتأوه بأصوات متفاوتة، كادت حباله الصوتية أن تنقطع، وكل ما حوله في صمت تام كأنه في عالم وما حوله في عالم مختلف تمامًا؛ أراد أن يرتشف قطرات من الماء، أَوَيُرجَى الماء في صحراء قاحلة؟! فرغ السادي من عمله بعد أن أتمه على أكمل وجه؛ ظَنَّ عبد الحق أنه سيعود إلى جُحر الفأر ذاك، لكنه كجنة عرضها السماوات والأرض، مقارنةً بزفرات الجحيم في هذه الغرفة، أما ظنه فقد كان خائبًا.

- «هل عرفت مَنْ يمحو مَنْ أيها الكائن الحقير؟»

كان يتصبب جبينه عرقًا، كان عمله شاقًّا، أظافر عبد الحق عنيدة مثله، ليست لقمة سائغة، كانت قوية كإصراره، لا تُنتزَع بسهولة

- «البقاء للأقوى.. نحن الذين نعلمكم كيف تعيشون.. جئنا كي نعلمكم الحضارة.. لكنكم بماذا قابلتمونا؟.. بالهمجية.. أنتم عبارة عن برابرة سُذَّج.. لا تستحقون الحياة.. لماذا أوجدتكم الطبيعة.. لتعرقلوا سير التقدم؟..»

كان لعابه كما كلماته يتطاير هنا وهناك، الزبد متراكم في أطراف فمه، دماء عبد الحق متناثرة على بزته الخضراء، ويداه ملطختان بشكل تام، كان في أقبح صوره قد تشاهد بها شبه مسخ في حياتك؛ لم ينطق عبد الحق، كأنه رأى الرد على التفاهة تفاهة أكبر منها، اكتفى بما يشبه الابتسامة الساخرة، رفع الزاوية اليسرى من ثغره كأقصى ردة فعل يستحقها جلاده؛ تميَّز ذلك الآخر من الغيظ، أخذ بإشعال شيء معدني يشبه القضيب يخرج من فوهته نار، وبدأ يشوي الجروح في منابت الأظفار التي نُزعت، كان الدم حين تصل إليه النار يصدر فرقعة كبيرة، وأخذت رائحة الشواظ تجول في الأنحاء، بُحَّ صوت عبد الحق من الصراخ؛ حتى استسلم لإغماءة طويلة لم يستيقظ منها لوقت طويل.

* * *

في مكتبة دائرية الشكل كتب متطاولة بعضها فوق بعض، كأنها جدران ورقية تُكَوِّنُ سدًّا عظيمًا، وشتلات صغيرة متناثرة في أرجاء مختلفة من المكتبة، الخواء فقط هو ما يمكن سماعه، إضافةً إلى نعيق مهموس لأجهزة الكشف عن الكتب، الناس يتحركون بصمت، يأخذون الكتب، ويجلسون على الطاولات.

ليلك تحوم كالنحلة، تُدون المعلومات، وترصد أسماء الكتب، شيان الآخر بدأ يأخذ منحى جديًّا، يتبع تعليمات ليلك، ويبحث في المجلات القديمة، أسماء المعارضين للحزب الحاكم الذين لقوا عقابهم، ربما لم تكتمل الفكرة في مخيلته تمامًا كما هي في عقل شريكته إلا أنه يبلي حسنًا. ساعتان متواصلتان من البحث والتدوين؛ خرج الشابان بقدر لا بأس به من العمل.

- «هذا جيد اليوم.. شيان.. لكن يجب أن نسرع أكثر..»

كانت تمشي بجانبه خروجًا من المكتبة الكبرى

- «لكن سيبقى العمل القادم عليك.. سأعتمد عليك كمصدر للمعلومات.. أريدك أن تسافر لتحضر لي إياها..».

- «ماذا؟ لماذا؟ أقصد إلى أين؟؟.. لم أفهم!!..»

- «اليوم سأشرح لك الأمر.. لكن..»

داهمتها رعشة خوف بعد تنهيدة مباغتة.

- «لكن ماذا؟؟»

- «لا بد أن تؤمن بالقضية حتى تعمل لأجلها.. وتتحمل العناء في سبيلها.. يتشربها فؤادك؛ فلا يُحيدك عنها شيء..».

- «لا أدري عمَّ تتحدثين.. ليلك.. لكن أنا هنا لأكون معكِ.. في صفكِ.. بجانبكِ..» قال مطمئنًا بعد أن شعر بهواجس عقلها تعبث في داخلها، يعلم ذلك من بريق عينيها. في الحقيقة لبريق العينين لغة فوق النطق والأحرف.

- «ما أريده أكثر من إيمانك بي..».

- «ليكن ذلك إِذَنْ..» صاحبها بابتسامة.

على نهر (بييون) الأشجار منتشرة من حوله، الأرض رطبة من تحت الأقدام، درجة الحرارة مرتفعة قليلًا، الأطفال يلعبون، بعض العوائل تشوي السمك، البنايات مرتفعة، في الشوارع الرئيسة من النهر. تجلس ليلك بجانب شيان يأكلان بعض الفطائر التي أعدتها خاتون صباحًا.

- «لذيذ هو طبخ أختكِ.. أنتِ محظوظة..» كان يأكل فطيرة محشوة بالجبنة والخضروات، يأكلها بتلذذ.

- «لم تَذُقْ شيئًا بعد.. كانت أمي أيضًا طاهية ممتازة..» ذكر والدتها قد هَيَّجَ مشاعرها بعض الشيء.

- «أنا حتى لا أتذكر كيف كان طبخها.. لا أتذكرها.. في المرة التي سألت أبي عنها رد عليَّ بصفعة كدت أن أُصَمَّ بعدها.. ظَلَّ وجهي منتفخًا مدة طويلة..».

امتلأت عينا شيان بالدموع، ما إن يتذكر والده حتى تظلل غمامة سوداء على قلبه، والده غريب الأطوار:

- «أتدرين أحيانًا كنت أستشعر أنني في سجن وليس في منزلي.. كان أبي غنيًّا، وكان ضخم الهيئة، كانت لدينا خادمة عجوز، كانت ترأف بي، حين علم أبي أنني سألتها عن والدتي إن كانت تعلم كيف ماتت؟؟ أو حتى ما تحبه من الأطعمة؟ كنت أحاول أن ألتمس ولو أثرًا بسيطًا عن حياة والدتي.. أو حتى عن موتها.. أي شيء عنها كان سيكفيني.. كلما حاولت جافاني أبي أكثر؛ حتى إنه أرسل الخادمة التي كانت تقوم بأمور المنزل إلى قريتها، أخرجها من بكين بالكامل، تخيلي ذلك!

كانت الشخص الوحيد الذي أحببته وأحبني في هذه الحياة.. عندما كان يثور جنون أبي فيبدأ بضربي؛ كانت تحنو عليَّ.. أحيانًا كانت تبكي حزنًا عليَّ.. عندما عادت بقيت بمفردي.. آكل بمفردي.. أتجوَّل في منزلنا الكبير.. ألعب في الحديقة الخلفية.. لم يسمح لي أبي بأن أجلب أصدقائي للمنزل.. عندما مات لم أشعر بالحزن عليه، ترك لي مالًا كثيرًا.. كنت قد تصادقت مع جيو، كان يشعر بي دون كلام.. كان صديقي المفضل منذ كُنَّا صغارًا.. صادرت السلطات الصينية منزلنا بحجة أنها لم تكن من الممتلكات الخاصة، بل ملك للدولة.. لم أحزن كثيرًا.. انتقلت لأعيش مع جيو.. تنقلنا في مساكن كثيرة.. كنت أعمل في العطلات.. أعرف كيف أجد المال»

انحنى برأسه للأسفل؛ تَجَعَّدَتْ شفتاه، أسدل جفنيه:

- «شاب تَعِسٌ بائس أنا.. لكني أعرف السعادة عندما أرى عينيكِ فقط..».

- «أين وصلنا في موضوع سفرك؟؟» كان صوتها يرتجف، يداها ترتعشان، تركت الفطيرة من يدها، أعادتها للسلة الخشبية الصغيرة الموضوعة بجانبها، كانت تهرب بنظراتها بعيدًا، وتحاول استجماع نفسها.

- «إلى أين يجب أن أذهب؟؟»

- «إلى شنجيانج..».

- «إلى البربر.. الهمج.. لماذا؟؟»

قال باستنكار، استقر نظره عليها:

- «كان أبي يحذرني من أن أتعرف على أحد منهم.. في ليلة شتوية.. كان أبي يستمع إلى الأخبار.. في نهار ذلك اليوم قتلت السلطات بعض الأفراد من إقليم شنجيانج.. أبي قال عندها بأنهم لا يستحقون الحياة.. لا أعرف عنهم شيئًا أكثر من هذا».

- «نحن في زمن يصبح الضحية هو الجاني.. والجاني هو الضحية»

احمرَّ وجهها غضبًا، ثم أردفت بجدية:

- «ستذهب إلى شنجيانج.. سترى ما لا تعرفه.. القتل.. الاستبداد.. التطهير العرقي.. عندها ستعود إليَّ وتخبرني برأيك.. بعدها ستسافر إلى بلد آخر لتقابل بعض الأشخاص.. وستعود مجددًا.. بذلك ننهي مشروعنا بهدف إنساني سامٍ.. عن قصة الإنسانية المسلوبة.. في حكم الإمبراطورية الحمراء»

زفرت بقوة، وأخرجت هواء حارًّا من أعماقها، لا يَنُمُّ إلا عن حريق يشبُّ في أحشائها:

- «ستنسى من تكون وأنت تقوم بالبحث.. ستنظر بعين الإنسان.. ستفكر بعقل المحايد.. مفهوم؟؟»

كان عزمها قد كوَّن درعًا حديديًّا على وجهها، كانت ملامحها كجندي عطش للظفر، كفارس يستعد لخوض معركة، كانت ليلك تتحزم بإصرار ناسف لا يمكن ردعه.

- «ستكون مغامرة جيدة.. شيء لم أَقُمْ به من قبل.. لتعلمي أيتها الآنسة أنني لا أدخل شيئًا إلا وأنجح فيه.. ثِقِي بي.. كما أنني أستطيع تدبير التكاليف.. كوني مرتاحة..».

- «إِذَنْ ستذهب إلى هناك في أسرع وقت ممكن.. ستكون سائحًا.. لن تتصل بي أبدًا، وخاصة من شنجيانج، وستتحرى بنفسك».

«تم..» قالها بروح التحدي، ربما رغبته في إثبات ذاته أمامها كانت أكبر من رغبته في النجاح، ونيله لاهتمامها كأكبر درجة قد يحصِّلها في حياته، لكن المفاهيم لا تبقى على حالها، حتى قمم الجبال تتغير تحت عوامل التعرية، والقناعات تتغير تحت تجلي الحقائق.

* * *

ينفذ الليل إلى السماء أسود الجبين، تزينه أنوار منتشرة على كافة بيوت الجبل، توحي لناظرها بالأنس، تدل على يوم استثنائي يعيشه سكان الجبل الكبير، جلبة عالية، وأطفال يترقبون متى تُوَزَّعُ الحلوى، وأهازيج تُرَدَّدُ، وطبول تُقْرَعُ، وتبريكات تتناثر، وشبان يتهامسون، وموائد تُمَدُّ، وضحكات تُتبادل.

كنتُ على رأس المشرفين، أُرَحِّبُ بالضيوف، وأرشدهم إلى حيث يجلسون، ثم يأتي الغلمان ويقدمون الطعام، البعض يأتي وفي يده هدية آخذها منه، وأضعها في غرفة العريس.

كان سليمان منتفخًا من الفرح، عيناه تتلألآن، يعلوها بريق السعادة، كان يرتدي لباسًا إسلاميًّا: ثوبًا أبيض يستقيم عليه

في ثبات لا تجد فيه ثنيةً، ورأسه ملفوف بعمامة بيضاء ناصعة، كان حفل زفاف بسيط، من قال: إن السعادة مقترنة بالبهرجة؟ بالترف؟ السعادة هي أن تكون حيث تحب مع من تحب. كم من أصحاب القصور المُشَيَّدة تُعَسَاء! وكم من أكواخ صغيرة ترفرف قلوب أصحابها في السماء فرحًا وسرورًا!

المواقف الصغيرة من الأحباب عبارة عن جرعات سعادة تحصدها العمر كله، حتى إن اختفوا يبقى أثرهم منقوشًا على الحجر، في رأيي الإنسان هو السعادة والتعاسة متى أراد ذلك، لا أدري كيف باغتني طيف حوريتي، سبحتُ طويلًا في ملامحها، في شعرها الفاحم، وجناح الصقر في جبينها، وعينيها الفاتحتين، وابتسامتها الساحرة، كُنَّا شابين في عمر الزهور، كنت أتعذر للذهاب إلى منزل خالتي لأراها، أفتعِل المواقف لتحادثني، حين عُقِدَ قراننا كانت مثل لؤلؤة مكنونة، تسدل على وجهها قماشة بيضاء، عاودني الشعور بالحرج كأول مرة أخبرتها فيها بأنني أحبها؛ حينها توردت وجنتاها، لم ننطق بعدها، كانت الأعين خير متحدث، والصمت خير شارح، ربما كنت وسيمًا بشامة صغيرة بين ذقني وشفتي السفلى من جهة اليمين، كانت تقول لي: لو أضعتك يومًا؛ سأعرفك من خلالها، أنا الذي أضعتها بعد هذا، ولم تترك لي دليلًا أجدها به، والآن بعد أن أكل الهم شبابي؛ لم أعد أفكر سوى بطرد هذا المحتل البغيض، أن أردَّ اعتبار شرفي الذي مُزِّقَ، أن أنتقم لحوريتي الحبيبة، تكورت الدموع في مقلتي، كان يجب ألَّا أفكر في هذا الأمر!

ذهبت راكضًا لأشارك صديقي فرحته، سليمان الذي اعتنيت به كأخي الأصغر، كنت أعوض فيه شعور أخي الذي فقدته عندما كان في الرابعة، عندما صارحني سليمان بأنه يريد الزواج؛ انفرجت أساريري بعد غَمِّ الخذلان الذي تلقيته في سفري إلى باكستان، كنت أرى السعادة في عيون الشبان الذين في مُقتبل العمر عندما يقررون أن يبنوا حياة جديدة، كنت أرى في بيوتهم الصغيرة الوليدة ولادةً جديدة لتركستان، أرى في أبنائهم علماء، وأطباء، ومهندسين، أرى نوابغ يأخذون بوطننا الجريح إلى العُلا، سُررت جدًّا بهذا القرار، وسعيت فورًا لإتمامه على خير بعون من الله.

عَلَتِ الزغاريد، النساء يتجمعنَ أمام منزل الشيخ يحيى خان الذي حمل على عاتقه مسؤولية حُسنة، يصفقنَ ويشعرنَ لها، شابات يركض إليها يباركنَ لها، ويقذفنها بالزهور، تتسلم الهدايا ابنة الشيخ يحيى، أجواء تنشرح لها الأرواح.

دخل سليمان في موكب إلى المسجد، كما أدخلت حُسنة التي لا يُرى منها شيء، تسير كغمامة بيضاء، أخذ الشابان يجلسان أمام الشيخ يحيى الذي تنحنح، ثم ابتدأ قائلًا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ الحمد لله الذي أنعم علينا بالأنس إلى أرواحٍ خُلِقَتْ منا، عندما خلق الله آدم؛ لم يخلق له صديقًا أو أخًا، بل خلق من ضلعه امرأة يسكن إليها، يأنس وحشته بها، وتداوي جراحاته، وتتعهد آلامه.

هي بضع منه، وهو وطن لها؛ فيكونان بذرة الحب الأولى للأسرة المسلمة؛ فتنبت شجرة طيبة مباركة هما فأسها ومعولها، هما سمادها وريُّها، هما الحارسان المخلصان لها، بهذا يزهر المجتمع؛ فيكون متينًا، وقويًّا متماسكًا، فطوبى لسليمان بحُسنة، وطوبى لها به، وطوبى لنا بشعبنا الأيغوري العريق الذي له تاريخ أصيل.

هذا البلد الذي فُتِحَ في زمن الخليفة عثمان - رضي الله عنه - على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، تسلمنا دعوة

الإسلام، وآمنا بها، وعملنا بها، وحُوربنا أشد الحرب، من المغول قديمًا، والروس، والصينيين اليوم الذين يجرعوننا كؤوس الموت في كل ثانية ولحظة من أجلها، لكن هيهات أن ننسى من نحن!

أيها العرق التركي الطيب الذي عشق الإسلام، وثبت عليه، وتفانى في حبه، أنتم بهذا الزواج تُعيدون تجسيد كيانكم، تحاربون مستعمِركم بالحياة إن كان يحاربكم هو بالموت، أجيال مديدة لتكن في نسلكم، وسعادة أبدية لحياتكم، ونصر لا تتبعه هزيمة.. آمين..».

هذه كانت افتتاحية الشيخ يحيى خان الذي كان يحرص على استغلال المناسبات لتأصيل القضية الأيغورية في النفوس، يُذَكِّرُ من لا ينسى، من يتألم لا ينسى، توارث هذه القضية الأبناء عن الأجداد، منذ القدم باختلاف أجناس المحتلين، تسامعوا القصص، وكتبوا الملاحم، وأصبحت من كيانهم وهويتهم.

-«عيناكِ في الخوف والفرح جميلتان»

كان سليمان ينظر إلى حُسنة بعد انتهاء مراسم الزفاف، عندما جمعهما سقف واحد لأول مرة؛ ابتسم ثم أردف:

- «أقصد في تلك الليلة.. عندما رأيتكِ أول مرة؛ كنتِ خائفة جدًّا، لكن جميلة..»

كان يمسك يديها برفق، انحنى قليلًا، ثم قَبَّلَ جبينها، لتكون أول حرف في سيرة حبهما الطاهر.

***

في وسط المدينة التي تعجُّ بالبشر، الحرارة مرتفعة، والشمس تقبل رؤوس المارة بأشعتها الدافئة، في منتصف اليوم الناس يقفون في صفوف خلف بعضهم أمام المحلات، يسلمون بطائق الهوية الإلكترونية قبل الدخول إلى أي محل، هكذا تؤخَّر حركة السير، ويُجعل المواطنين بلا خصوصيات، كما أن أعمالهم اليومية وتحركاتهم تحت المراقبة.

- «لقد سئمت من هذه البطائق ما هذا؟؟ لماذا يترصدوننا في كل شبر »

قالت بقرف بصوتها الأَغَنِّ. كانت فتاه في مقتبل العمر، لا تزيد عن الثامنة عشرة، تسدل شعرها الطويل فاتح اللون، لديها بعض التموجات أسفل الشعر، تفوح منها رائحة العطر كأن الزهور اعتصرت لها رحيقها، ثم ألقته عليها، عليها القليل من مستحضرات التجميل، تلبس فستانًا أحمر، جعلها تبدو كوردة جورية تسير على قدمين.

«يبحثون عن إدانة يدينوننا بها » قالت مليكة بشكل مهموس، التفتت إليها الفتاة، رأتها متوشحة بحجابها الأزرق. قلة هنَّ الفتيات اللاتي يرتدينَ الحجاب الكامل - تمنع السلطات من لبس ثياب تغطي كافة جسد المرأة - أغلب الفتيات يلبسن مناديل صغيرة، كتلك التي كُنَّ يرتدينها النساء الأوربيات في القرون الوسطى، لا تغطي الشعر بأكمله، أو أنها تغطي الشعر، وتكشف عن العنق والنحر.

- «ألا تخافين؟؟»

قالت بهلع في أذن مليكة التي تقف خلفها، الجنود منتشرون في كل مكان، لا يكلون ليلًا أو نهارًا.

- «لا أخاف..».

- «سيأخذونك إلى مراكز التأهيل.. سيضربونك.. يجعلونك تفعلين أشياء لا تحبينها..»

عيناها ترتجفان من الخوف:

- «حتى إنه لا داعي لذلك.. ما الفائدة من أن تقفي أمام دولة عملاقة؟..»

- «ألم تقولي بأنكِ سئمتِ من حصارهم لنا؟؟..» بتحدٍّ.

- «ليكن، لكن.. ما باليد حيلة..».

- «ألف حيلة.. أولها هويتك التي مُسِخَتْ.. ما الفرق بين البنات الأيغوريات المسلمات.. والبنات الصينيات.. اللبس نفس اللبس.. والهيئة نفس الهيئة.. وكما ذهبت تركستان وأصبحت شنجيانج.. ذهب الكثير من الشباب والشابات الأيغوريين والأيغوريات إلى ما يريده العدو المحتل..».

مَدَّ الشرطي يده ليأخذ بطاقة الفتاة؛ ابتسم وهو يراها، كانت ابتسامة مكر، تنمُّ عن خبث دفين، بيمنا كان شرطي آخر يقوم بالفحص، رمقته مليكة بحدة؛ فذهبت ابتسامته، نظر إليها شزرًا، أخذ بطاقتها هي الأخرى، وتم الفحص، وأُدخلت البيانات، العلامة خضراء، لكنه لم يسمح لها بالدخول.

- «تنحي جانبًا..».

- «لماذا؟؟ بياناتي سليمة.. الضوء أخضر..».

- «لا تتكلمي، انتظري بصمت..».

وقفت مليكة، تدور في رأسها آلاف الهواجس، تحاول تخمين ما الذي سيحدث، ما يقطع حبال أفكارها إلا رنين أجهزة التفتيش عند إدخال البطائق فيها، لا أحد يستطيع أن يهرب من قبضة السلطات الصينية، يُدخلون معلومات الناس في أنظمة رصد، ثم حين تتم إدانة شخص ما؛ فإنهم يظهرون له ملفًا خاصًّا به في أنظمتهم، يُدون هذا الملف كل حركة قد قام بها طوال عمره: أين ذهب؟ مع مَن؟ ومتى؟ بالتاريخ واللحظة. لديهم بصمات صوت، يستطيعون تحديد الموقع أيًّا كان، لديهم أجهزة مراقبة في كل مكان. كانت مليكة تغرق في خوفها مع كل ثانية تمر، إلى أن التفت إليها صاحب البزة الخضراء. إنهم يمشون مدججين بالسلاح، كأنهم في معركة، وليسوا بين مواطنين عُزَّل.

- «لدينا اجتماع في مركز الشرطة..»

كان يبتسم ابتسامة جليدية، مَدَّ كفه، قبض على معصم مليكة؛ أرادت الخلاص، لكنها رأت أن المقاومة هنا تهوُّر، اجتمع عليها الجنود المجاورون.

على الجهة المقابلة من الشارع يوجد مركز شرطة، في إقليم شنجيانج لن تفتقد مراكز الشرطة أبدًا، لن تتحرك بضع خطوات حتى تلقى مركزًا، هذا بخلاف نقاط التفتيش.

سِيقت المغلوبة على أمرها إلى ذلك المكان الموحش عنوةً، أُدخلت إلى غرفة بها زنزانة صغيرة، هنا يُحتجز المخالفون مؤقتًا، في حال انشغل رئيس القسم في قضية أخرى؛ أُغلقت الأبواب، الأقفال الحديدية على أعمدة باب الزنزانة، أرض صماء جلست عليها مليكة تنتظر ما سيحلُّ بها، لم تستطع أن تحسب كم مضى من الوقت، لم تكن بالفترة اليسيرة، كانت تضع رأسها على ركبتيها، وظهرها متكئ على جدار الغرفة، أرخت أجفانها، جلبة كبيرة أفشلت محاولتها في أن تنال غفوة صغيرة، دلف أحدهم الباب بقوة، كان شرطيًّا، تقدم حتى أصبح أمام باب الزنزانة الصغيرة، فتحه، وأشار بيده لمليكة؛ جرَّها بعنف إلى الغرفة المجاورة على اليسار، هنا مصدر الجلبة، رئيس القسم مع أفراد آخرين يضحكون، ويتمايلون؛ صمتوا عندما بدت لهم الفتاة، أحدهم قام بحركة مفاجئة، واختطف حجابها من رأسها؛ شهقت بصوت ملأ أرجاء الغرفة؛ بدأت الفتاة تتخبط غيظًا، عاودوا الضحك، كان ضحكًا هستيريًا أكثر هذه المرة؛ رفعت يديها تحاول إخفاء شعرها؛ سحبها أحدهم إلى الكرسي الموضوع أمام الطاولة في الجهة اليمنى من الغرفة.

- «لماذا تخالفين القانون؟؟..» قال رئيسهم بعد أن جلس أمامها.

- «تريد افتعال المشاكل..» قال أحدهم من خلفها.

- «تريد أن تذهب إلى أحد مصانع (تيانجين).. كاللاتي أخذناهنَّ من فيض آباد.. ليست بعيدة من كاشغر.. من المؤكد أنك سمعتِ عنهنَّ..»

انفجر ضاحكًا بانفعال خلف أذنها؛ حتى شعرت أنها ستفقد سمعها؛ كانت تصك أسنانها بقوة، كل ما بها يستنفر.

-«مصانع!!» قال الرئيس، ثم أخذ يتفحص وجهها الخائف بخبث:

- «ستكون سلعة ممتازة.. لحسن حظها أنها أتت بعد حفل عيد ميلادي.. استمتعت اليوم بما يكفي، وإلا كنت سأريكم كيف تعمل المصانع..» تبادلوا الضحكات مجددًا، والفتاة في المنتصف تنتظر ما بعد كل هذه الحفلات الضاحكة؛ فاجأتها صفعة قاسية.

- «لا تظني أنهم أحضروكِ إليَّ لتستمعي لضحكاتي.. أنتِ مخالفة للقانون.. ترتدين حجابًا يغطي كافة جسدكِ.. هذا ممنوع..» شَدَّ آخر شعرها من الخلف؛ صرخت في هلع، أتبعه آخر بضربة تهوي على مقدمة رأسها؛ أخذت تبكي بحرقة، وتصرخ، وتستغيث بلا أحد!

الله فقط من كان يسمع قلبها الذي يناديه في اضطرار. أخذ رئيس القسم الحجاب الملقى على الأرض؛ كان قد اتسخ، ربطه حول عنقها؛ حتى كادت تموت خنقًا.

- «لقد هدمتُ ١٥ بيتًا لارتداء نساء فيها الحجاب.. لا تجعليني أعمل هذا معكِ.. سأهدم الدنيا عليكِ..»

كان يزبد في غضب؛ يتلذذ، لألمها بعد أن خارت قواها؛ أفلتها، ورمى على وجهها كوبًا من الماء البارد كان يشرب منه، وضع الحجاب في منتصف شعرها، وربطه من الخلف، فعل ذلك بعنف بالغ.

- «هكذا قد أسمح لكِ بارتدائه..»

دموعها فقط من كانت تجيب؛ تذكرت تلك الفتاة السافرة التي التقتها أمام المحل ظهر اليوم، عاد صوتها الأغنُّ في مخيلة مليكة، ربما كانت محقة. ماذا سأفعل إن تم اعتقالي؟؟ ما الذي سيتغير؟؟ هل ستتحرر تركستان؟؟ بالطبع لا... «سيأخذونكِ إلى مراكز التأهيل.. سيضربونكِ.. يجعلونكِ تفعلين أشياء لا تحبينها.. حتى إنه لا داعي لذلك.. ما الفائدة من أن تقفي أمام دولة عملاقة؟..» ستدوسني وتسير، هذا كل شيء.

أخذت تنعي حالها، وتنتحب، تبكي كل فتاة مسلمة لا تستطيع إظهار دينها، تبكي كل أيغورية سيقت كالشياه إلى داخل الصين؛ حتى لا يُقتل أبوها أو أخوها، تبكي كل فتاة أُهينت كرامتها في يد عابثة قذرة، طُردت مليكة من مركز الشرطة، ربما كانت هذه دعوة صادقة أصابتها، خرجت بشكل غير الشكل، وروح غير الروح، خرجت أشلاء إنسان، خرجت وهي تسيل دمعًا، وتقطر دمًا.

* * *

# الفصل الخامس

الجميع يلبس بزات زرقاء قاتمة، يسيرون في صفوف منتظمة، كأنهم في وحدة عسكرية حربية، وليس في معسكر إعادة تأهيل، ينزلون عبر السلالم إلى الساحة الأمامية. المعسكر عبارة عن ثلاثة مباني مستطيلة الشكل، تُكون حرف u باللغة الإنجليزية، لا ينزل فيها الناس بضربة حظ، أو حسب الرغبة، بل حسب الفئة النزيلة.

المبنى الأول من جهة اليسار ينزل فيه المساجين المتدينون، والأوسط لمن تواصل مع جهات أجنبية، أو أبدى تبرمًا من السياسة الصينية، أما المبنى الآخر لمن يتواصل مع جهات إرهابية. وفي الأخير كان ينزل عبد الحق خوجة، بعد أن تم التحقيق معه وتعذيبه بما يلزم على تواصله مع خلايا إرهابية؛ أنكر عبد الحق ذلك، قال إنه فقط يسافر من منطقة إلى أخرى في إقليم شنجيانج محاولًا تأمين المعيشة له ولوالدته، هذا العذر لم يكن كافيًا لإدارة المعسكر، لكنهم طمعوا في كسبه لصالحهم، ورأوا أن شيئًا من خوف قد دخل إلى قلب عبد الحق، وداهية كمثله من الجيد استخدامه.

في ساحة كبيرة تتوسط المباني الثلاثة، العَلم الصيني الأحمر ذو النجمات يرفرف في الوسط، تمتلئ هذه الساحة بالمساجين، أمامهم توجد منصة كبيرة. في كل مرة يأتي أحدهم، ويلقي عليهم خطبًا في الولاء للأمة الصينية، والحزب الحاكم، والعائلة الحاكمة. من لا يبدي الرضى بما يقوله الخطيب ينال جلسة تعذيب تعيد له عقله، كانت الخطبة الأولى لعبد الحق، الكل يجلس القرفصاء في هذه الساحة لساعات يستمع إلى المتحدث اللبق، الشمس تشوي الأجساد، لا يمكن لأحد أن يتحرك، أو أن يتكلم، أو يصدر أي اعتراض على كل ما سبق.

«أيها الصينيون الأحرار..»

بدأ كلمته، يقف بشموخ على المنصة الأمامية، يتظلل بالعلم الأحمر.. عليه بزة سوداء لامعة:

«يا أبناء الدولة العظيمة.. أبناء الحزب الحاكم.. في نظام الحزب الأوحد.. ألا وهو الحزب الشيوعي الواحد.. الولاء.. الإخلاص.. التضحية والتمجيد.. كل هذه قليلة في حق الحزب الحاكم والأمة الصينية.. كونوا أوفياء لأمتكم بالتفكير في تضحياتها.. لتصلوا إلى أعلى المراتب.. لا ترتبطوا بالعرقيات الهوجاء.. الصين تعني الحضارة والتقدم.. في حين كنتم همجًا بربرًا، لا تعرفون المدنية أو الحضارة.. تحكمكم معتقدات عَفَّى عليها الزمن.. وعادات لا تمتُّ للعالم الحديث بصلة.. ناضل هذا الحزب الرؤوف، وجاء بكل عدة وعتاد لإنقاذكم..»

ابتسم أحد السجناء ساخرًا؛ هوت عليه فوهات البنادق ضربًا من الجنود الواقفين أمامه، والكلمة ما زالت مستمرة.

«فالوفاء الوفاء للتضحيات المبذولة لأجلكم.. لا قيود.. افعلوا ما تشاؤون.. استمتعوا بكل الأشكال.. كونوا أحرارًا.. تحرروا من المعتقدات الرثة.. جئنا لتحريركم بكل الوسائل.. تعاونكم ردًّا لهذا الجميل.. قفوا عند قوانين الحزب الحاكم فقط.. في الحقيقة الحزب الحاكم خادم لهذا الشعب العظيم.. ولا يفعل إلا الأشياء الجيدة للجمهور.. ولا يمكن أن يقوم بأشياء سيئة بحق شعبه أبدًا.. ومن يعارضه ما هو إلا كنتن البيض يجب أن يطهر.. وهؤلاء يتم طردهم من المسرح..»

زاد من نبرة صوته صارخًا: «يستغفلون الجهود العملاقة.. هل هم عميان؟ في المقابل.. حزبنا لديه الكثير من الأمور

الأهم.. وليس فقط الرد على هذا وذاك..»

قال مطمئنًا بعد أن فرد ملامح وجهه الغاضبة:

«لا داعي للقلق حول الذين لا يزالون يفوحون بنتن البيض.. دعوكم منهم، واتركونا ننعم بغناء النشيد الوطني..»

أشار بيده للسجانين بالبدل الخضراء وهو يبتسم:

«هؤلاء (الموظفون العاملون) الذين أتقنوا الصلاحيات والأعمال الحقيقية.. يتمتعون بدعم وإسناد.. الأساتذة.. في حزبهم الحبيب.. يقومون بعملهم براحة بال، وسعة صدر، وعلى أكمل وجه.. إن السبب وراء هذا المشهد الجميل ليس أن الربان يمتلك القدرة.. وأن الحزب هو الخادم الرئيس للأمة الصينية.. ولا يعني أن الحزب الشيوعي يولد بمجدٍ وصلاح عظيمين.. ولا يولد أعضاءه بجودة عالية.. ونوعية جيدة.. ونمط عمل شاق.. بل هو في الحقيقة (تفرد حزب).. وتميز وطن.. ولطف المتعصبين الذين يقفون أمام عجلة التغيير.. فيركبون مع أمتهم على سفينة التقدم بكل اعتزاز..».

صَفَّقَ الجميع، السجناء والسجانون، وعلت هتافات المدح والثناء، وظل مندوب الحزب يلوح بيده لجمهوره المجبر على التصفيق له، ثم فُتحت المكبرات، وقف الجميع كأنهم تماثيل منزوعة من الحياة، يرددون كلمات التمجيد للحزب الحاكم. مشاعرهم ملتهبة، ويشعرون بالإذلال، يشعرون بأن حقوقهم تُسْلَبُ، معتقداتهم تُدَنَّسُ، أصولهم تُمْحَى.

هذا ليس غسيل أدمغة، إنه غسيل أرواح، أنَّى لأرواح هؤلاء أن تُشْفَى؟؟!!

* * *

الساعة التاسعة صباحًا، السماء صافية إلا من غيمات متناثرة، الهواء عليل، والمبنى مهيب، تشعر بأنك شيء صغير جدًّا أمام هذا الكُبر الهائل.

في شمال شرق بكين الازدحام هو سيد الموقف، مطار بكين هو ثاني أكثر مطارات العالم ازدحامًا، هنا توجد الكثير من الجنسيات، الابتسامة هي اللغة المشتركة بين الجميع، كلمة إنسانية لطيفة لا تُترجمها المعاجم، يفهمها الجميع ببساطة، لا تُكتب على الأحرف، فقط تُرسم على الثغور؛ فتفهمها القلوب بسلاسة.

وكما تجمع البشر تجمعت بعض الغيوم؛ لتزخَّ بمطرها على المطار الواسع، يرتُد المطر بعد اصطدامه بالأرض؛ فتبدو الأرض وكأنها تبادل السماء بالمطر. كانت ليلك تلقي بتعليماتها على شيان الذي يتأهب للسفر، منعته من تدوين أي شيء؛ التعليمات الشفوية كافية.

«ستكون أنت الوسيط الوحيد بيني وبين الحقيقة.. سَتُدَوِّنُ كل القصص والحقائق في عقلك.. بعدها سَنُدَوِّنُها في مشروعنا، ونُسَلِّمُها، قد تكون القصة الأخيرة التي سنكتبها.. لكن دَعِ العالم يعلم.. ودعنا نكون الأحرف المنحوتة على صخرة حق الإنسان في أن يعيش إنسانًا..».

كانت قلقة بعض الشيء، ترفع بيديها وشاحها الرمادي على كتفيها، وتعقده أمام صدرها. الحرارة بدأت تنخفض، كانت تجمع شعرها في جديلتين طويلتين، تقف مختبئة من قطرات المطر تحت مظلة كبيرة تحتها كرسي انتظار.

- «سأتتبع المناطق التي طلبتِ مني زيارتها.. هذه الرحلة أشبه بالبحث عن لا شيء.. في حين أنني لا أعلم ماذا يجب عليَّ أن أبحث عنه.. آمل ألَّا أدور في حلقة مفرغة، وأن أجد طرف الخيط بسهولة..»

كان ينظر إلى الأرض، وهو يجلس على كرسي الانتظار، يتكئ بمرفقيه على فخذيه، ويفرك شعره في توتر تارة، ويعبث بوشمته السوداء الواقعة بين شفته السفلى وذقنه من الجهة اليمنى تارة أخرى.

- «اعمل بجد.. أراك في الأيام المقبلة.. إلى اللقاء..»

كانت تَهُمُّ بالمغادرة، في حين شيان ينهض لدخول المطار، ويجرُّ خلفه حقيبة سفر سوداء، يتوارى عن الماء بمظلة زرقاء، يتناثر الماء على أطرافها.

«على جميع الركاب الاستعداد للهبوط» كان صوت المضيفة الناعم هو ما جعل شيان يعود لأرض الواقع بعد أن كان يحسب الحسابات، ويدرس التوقعات لما سيواجهه في إقليم شينجيانج ذاتي الحكم. ما الذي سيراه؟؟ هل ستكون كما قال له والده إنها أرض لبربر همج لا يعرفون مصلحتهم، وأن الصين هي من تجرهم إلى الحضارة لأجلهم؟؟ أم أنها نظرة والده العامة تجاه الناس جميعًا؟؟ كم مجَّها في وجهه لأبسط الأخطاء: «أيها البربري الهمجي..» كانت الألفاظ الأكثر سيلانًا على لسانه، أو أنها ستكون كما قالت له ليلك عبارة عن الضحية التي ظهرت على شكل الجاني؟؟ هل حقًّا هنا سيرى الوجه القبيح للصين الذي لا يأبه بها أصلًا؟؟ لا يستشعر وطنيته تجاهها، لا فرق عنده بين بلدان العالم، المهم أن يعيش مرتاح البال.

كان مترددًا حتى اللحظة قبل الأخيرة من صعوده الطائرة في الخوض في هذه التجربة، شيئان لا ثالث لهما حَمَّلَاه على خوضها: حبه للمغامرة، ورغبته العارمة في نيل رضى فتاته الجميلة.

كان هذا المشروع وجه سعد أمامه؛ فبه فقط استطاع أن يحظى بقربها والاحتكاك المستمر معها، قبل ذلك كانت نظرة واحدة منها أمنية عزيزة بالنسبة له لا يحلم حتى بتحققها. هبطت الطائرة، وهبطت معها دقات قلبه، أجرى معاملاته، وخرج إلى الحقيقة. مطار أورمتشي عاصمة إقليم شنجيانج شمال غرب الصين.

أخذ يتجول في المدينة، لا شيء غير طبيعي، مباني مشيدة، وأرصفة مرصوفة، ونساء يلففنَ شعورهنَّ بأقمشة كالتي تضعها خاتون على شعرها، الآن بدأ شيان بتجميع الأمور وربطها ببعضها، لقد كانت أيغورية إذَنْ؛ بدأ يفهم ريبتها وابتعادها عن الآخرين، لقد كانت مسلمة، مع ذلك لا يهم الأمر بالنسبة له، أيًّا كانت ديانتها لا بأس؛ طالما هو اختار قلبها ديانة له.

الأماكن هنا أكثر شعبية من بكين، يقف الناس خارج المحلات في السوق، يدخلون ببطائق تعريف، هذا أمر غريب بالنسبة لشيان، حتى في المطار كان قد لاحظ أن هناك مخرجين: أحدهما للأيغور، والآخر للعرقيات الأخرى، هذان الأمران كانا قد أثارا انتباهه في الساعة الأولى من نزوله على هذه الأرض.

أخرج هاتفه المحمول، وبدأ بتصوير المكان، أفراد الشرطة ينتشرون في كل مكان، أيضًا مراكز الشرطة تتوزع بشكل مُرَكَّزٍ في الشوارع. كانت ليلك قد أخبرته أن إقليم شنجيانج هو المنطقة الأكثر انتشارًا للمظاهر الأمنية في العالم.

في طريقه رأى بائع كعك على الرصيف، يقف خلف عربة، الكعك مرصوف خلف حائط زجاجي صغير، كان شيان لا يزال يمسك بهاتفه مستمرًا في التصوير، اقترب من بائع الكعك.

- «كيف حالك يا صديق؟؟» كان مبتسمًا، ثم وَجَّهَ عدسة التصوير إلى وجه البائع.

- «كل شيء على ما يرام.. نحن سعداء جدًّا هنا.. الأمور تسير على منحى جيد..» كان يبادله نفس الابتسامة.

- «هذا جيد..» أجاب. بينما هو يُحَوِّلُ عدسة التصوير لرجل عجوز يجلس على كرسي بقرب العربة؛ أدار العجوز وجهه بغضب، وفرد أصابع يده أمام العدسة محاولًا منع شيان من تصويره، احترم شيان رغبة العجوز، ثم أخذ بإكمال رحلته السياحية في الأرجاء؛ حتى وصل إلى الفندق الذي سينزل فيه.

فرغت أطباق العشاء، الأضواء منطفئة، والسرير دافئ، وقطرات المطر تقرع زجاج النافذة، جسد شيان منهك من السير طوال اليوم في شوارع أورمتشي، كانت رحلة جيدة، كان شيان قد فكر في طريقة تجعله يحفظ ما يراه يوميًّا، وهي أن يجعل كل الأشياء التي لفتت انتباهه في نقاط.

كان أول الأسئلة التي يريد لها تفسيرًا هو: ما الداعي من الانتشار غير الطبيعي للمظاهر الأمنية؟ والثاني هو: لماذا هناك تفريق بين الأيغورين وغيرهم حتى في مدخل مطار إقليمهم؟ هذا كل شيء لهذا اليوم، كان شيان يمسك بأصابعه يحاول تذكر شيء آخر قد غفل عنه، ثم أغمض عينيه، تذكر ذلك العجوز، وأَحَسَّ بأنه قد أزعجه دون قصد، كانت ملامحه كلها توحي بغضب دفين، وجهه العابس، ويده الممتدة. ما الداعي لكل ردة الفعل تلك؟ لو قال: أبعد الهاتف؛ لفعل، ثم عزم على الاعتذار له في صباح اليوم التالي.

بعد إفطار أيغوري، الشاي الممزوج بالحليب الطازج، والفطائر المنكهة بالثوم؛ أَحَسَّ شيان بالرغبة في التجول مجددًا قبل الانتقال إلى كاشغر. في طريقه مَرَّ على بائع الكعك؛ لعله يجد ذلك العجوز بجانبه. شوارع المدينة تنبض بالحركة، العمال إلى أعمالهم، والطلاب إلى مدارسهم. تنحى جانبًا حتى وصل إلى مكان وقوف عربة بائع الكعك، لكن المفاجأة أنه لم يكن موجودًا، لا هو ولا عربته، وعلى الرصيف يجلس العجوز بمفرده، شاردًا بذهنه، يفرك عينيه، ينزع قبعته البيضاء من على رأسه، ثم يعيدها، كان حزينًا، قلقًا، عندما اقترب منه شيان؛ تَحَوَّلَتْ ملامحه اليائسة إلى ملامح مفترسة مهاجمة.

- «أين هو البائع الذي كان هنا بالأمس أيها العم الطيب؟»

سأل شيان بلطف، وهو يضع كفه على كتف العجوز الجالس.

- «المجد لعدسة تصويرك..» قال العجوز بلغة صينية ركيكة.

- «لم أفهم!» مستغربًا. ما علاقة عدسة تصوير في اختفاء رجل؟

- «بسببك ظنَّ الجنود بأنه شكا إليك عن المعيشة في شنجيانج، وهذا ممنوع.. لا يُسمح بالتكلم عن الأوضاع مع أي شخص.. من لديه رأي يحتفظ به لنفسه.. غير مُرَحَّبٍ بالصحفيين وبأسئلتهم هنا..»

قال بهمس في أذن شيان، وهو يشده نحوه من ياقة قميصه، ثم قال:

- «المسكين أخذوه إلى معسكر التأهيل مجددًا، كان قد خرج منه حديثًا.. لديه عائلة.. مَنْ سيرعاهم الآن؟؟»

أخذ بالبكاء؛ تأثر شيان أيضًا، تذكر كلماته البارحة، لم تكن سيئة، لم يعترض على أي أمر، كان مبتسمًا، ومتفائلًا بالحياة. لماذا تخاف الصين من أن يبدي هؤلاء آراءهم؟؟ إِذَنْ هذا هو السؤال الثالث الذي يبحث عنه من خلال جولته في أورمتشي.

* * *

أشجار غَضَّةٌ نَدِيَّةٌ، تتراقص على نسمات الصباح الباكر، السماء صافية بعد مطر استمر طوال الليل، والشمس ترسل أشعة ناعمة، تدعو نوافذ المدينة للنهوض. كاشغر مدينة ذات طبيعة خلابة، كحدائق بابل المعلقة، وكمدرجات الأندلس، وواحات فارس، تتزين بالأخضر في كل حيٍّ وشارع.

كان شيان يدقق في ملامح المدينة، لأول مرة في حياته يشعر بارتباط روحي لمكانٍ ما، كأن روحه تهرب منه إليها، إلى حدائقها، إلى أحيائها، وتتأمل منازلها، وتتجول في حاراتها. كانت عيناه تتنقل بين أوجه المارة في الحي القديم، قلبه يدق بسرعة، لم يشعر بهذا في أورمتشي، هذه المدينة ساحرة، رأى أطفالًا يتراكضون؛ فتأملهم بصمت، وغارت عيناه بعيدًا.

كاشغر ذات مباني أقل تطورًا من تلك التي في أورمتشي، بالرغم من أن كاشغر كانت العاصمة الأولى للإقليم.

أخذت أقدام شيان تسير بلا وعي، وبدون إدراك؛ حتى وجد نفسه في آخر الحي الشعبي، استقبلته هناك شجرة خضراء كبيرة، عليها حبلان متدليان، في وسطهما إطار سيارات قديم ومهترئ، إنها أرجوحة أطفال يدوية.

اقترب من الشجرة أكثر وأكثر، كان جذعها كبيرًا، تلَّمسه بيده، وتحسس أنسجتها الخشنة، تبدو شجرة قديمة جدًّا، استدار حولها، فإذا برمز منحوت عليها عبارة عن دائرة بها حرفان منحوتان بعمق، إنها لغة لا يفهمها (إ. ل)، التقط له صورة بجواله.

في تلك الأثناء شَدَّ انتباهه صوت بكاء؛ التفت في دهشة، هناك منزل قديم بمحاذاة الشجرة تمامًا، تخرج منه امرأة مسنة تكتم صرخاتها بيدها، تمسكها فتاة شابة، تشدُّ على معصمها، كانتا حزينتين، تلفان شعريهما بقماش أبيض، كأنهما ستخرجان إلى سفر، دَلَّ على ذلك حقائب تقف أمام الباب؛ لم يستطع شيان الانتظار، ركض بسرعة، نظر في وجه المرأة لبعض دقائق.

- «ما الخطب يا سيدة؟؟»

ظلت صامتة، دون كلام، كانت الفتاة التي بجانبها أيضًا تذرف أدمعها بصمت، تعضُّ على شفتيها بألم، مسحت دمعاتها بكمها، ثم شهقت بصوت هَلِع، عندما سقطت السيدة أرضًا على عتبة الباب؛ أخذت الفتاة تولول وتبكي على صدرها.

- «لا تتركيني يا خالتي.. تماسكي رجاءً..» قالت في أحرف متقطعة، وأنفاس متلاحقة.

- «إسما.. إسما.. عبد.. يا رب..» كانت المرأة تتمتم في اختناق، لم يفهم شيان شيئًا، أما مليكة أخذت تنتحب، والذكريات السوداء تلفح ذاكرتها.

جلس شيان بجانب المرأة؛ أخذ كفها، ورَبَتَ عليه بلطف، أخرج زجاجة ماء من حقيبته المعلقة خلف ظهره، أسند رأسها،

ثم سقاها، أسقطت مقلتيه بعض الدمعات، وشعر بحزن شديد، نظرات المرأة كانت مريبة؛ أخذت تتفحص وجهه وملامحه، بدت أكثر اضطرابًا.

- «من أنت؟؟..» سألت بصوت مبحوح.

- «أنا سائح صيني يا خالة.. لا تخافي..».

أعرضت عنه، دخلت في نوبة بكاء حادة، وجلست على ركبتيها:

- «ظللتُ أنتظرهم سنين طويلة دون فائدة.. سأرحل الآن.. سأترك البيت الذي ولدتهم فيه.. ربيتهم.. لعبوا هنا.. أطعمتهم بيدي..» دموعها السخية تسيل على خديها.

- «إن كانوا أحياء؛ فمصير الحي أن يلاقي الحي.. أما إن كانوا قد رحلوا ففي الجنة اللقاء الأبدي..»

أخذت ملامح الجدية ترتسم على وجه مليكة.

- «هو ذاك يا مليكة..»

نهضت المرأة ببطء، وأخفت شعراتها المتناثرة تحت حجابها الأبيض، تقدمت خطوات إلى باب البيت الخشبي، وأغلقته، وضعت كفها عليه، وتمتمت بكلمات، وهي تسدل جفنيها، ثم أخذت حقائبها، وأمسكت الفتاة، وسارتا ببطء حتى تواريتا بين الأزقة والبيوت القديمة.

أما السائح فظل في لحظة تأمل طويلة، ينظر إلى أقدام المرأة المتثاقلة حتى اختفت، تأمل هذا البيت العتيق الذي يبدو أنه قد شهد قصصًا مكتوبة على جدرانه بلون أحمر، وألقى نظرة متفحصة أخيرة على بابه، موضع كف المرأة، والشجرة القديمة، والأرجوحة المعلقة، ثم سار وسؤال ينخر في عقله، من هذه المرأة؟؟ وما قصتها؟؟

* * *

رائحة الخبز الطازج تفوح من الفرن، صوت فرقعة الماء المغلي في الإبريق، ورائحة الصباح المنعشة. نافذة المطبخ مطلة على الحديقة الخلفية الصغيرة، حُسنة تقف أمامها، تعبث بخصلات شعرها البني المنساب على أكتافها، عيناها معلقتان في الأفق، تنتظر نضوج الطعام.

- «قدر اختطافكِ كان أجمل أقدار حياتي»

كان سليمان تركستاني يقف على باب المطبخ، ينظر إلى حُسنة الشاردة، كان شعره يقطر ماء، لقد استيقظ للتوِّ.

- «لا تكن سخيفًا.. لو رأيتُ صينيًّا.. لقتلته..»

انفعلت حُسنة جدًّا، ملامحها غاضبة، كانت تضع يدها على خصرها، ورمقت سليمان بحدة، ثم عادت لتأملها:

- «أفسدت نقاء صباحي..» أضافت دون أن تنظر إليه.

جلس سليمان على طاولة خشبية حولها كرسيان، لا يوجد أثاث كثير، أو فاره في منزلهما، لكن هناك الكثير من الحب، ومن المودة والرحمة.

- «تعالي واجلسي.. يا جميلتي..» قال وهو يمد يده لتأتي إليه، أخذت الأخرى تخرج الخبز، وتصب الشاي في الأكواب البيضاء، أخيرًا وضعت البيض الناضج أمام سليمان، وجلست وهي عابسة.

- «أنا لم أقصد أن أزعجكِ.. كل ما قصدته هو أنه من الرائع أن تكوني زوجتي.. وذلك لم يكن ليكون لولا أننا أنقذناك من الصينيين.. ما كنت لأعرفكِ حتى..»

ختم كلامه بقبلة طائرة في الهواء.

- «على كلٍّ مشاعري لن تتغير تجاههم.. دعك من هذا، وأنهِ طعامك..»كانت تقطع الخبز.

- «حُسنة.. يا لب الفؤاد، استمعي لما أقول.. يجب أن تفرقي بين الإنسان والعدو.. في الأصل نحن نحمل الحب في داخلنا لجميع البشر.. الإنسان له قيمة عظيمة.. هو من روح الله.. هو أساس كل معنى.. رسولنا الكريم تحمل أنواع الأذى؛ لينجي هذا الإنسان من الظلمات.. كان رحيمًا بالجميع.. يقدس الروح البشرية بغض النظر عن الاختلافات.. يا حورية بحري.. نحن لن نقتل الصيني أين وجدناه.. لأننا لا نستهين بالروح التي خلقها الله، ولا نقلل من قدرها وقيمتها.. لكننا مع ذلك لن نرحم من يأتي إلينا، ويتعدى على حقوقنا، ويدنس معتقداتنا، ويدوس على أعرافنا.

لن نقول لمن يريد مسح هويتنا.. وطمس كياننا: أهلًا وسهلًا.. لا وألف لا.. لا أهلًا، ولا سهلًا بهؤلاء.. سنمزقهم ونريهم من نحن.. لكننا لسنا ظالمين لنحكم على الناس بما لم يرتكبوه.. هل سمعتِ بأن النبي - □ - قد قتل يهوديًّا في المدينة بما فعله يهود آخرون؟؟

معاذ الله.. هل سمعت بأن المسلمين يقتلون الذميَّ؟ كم عاش بين المسلمين بشرًا من مختلف الديانات.. بل أضيفي على ذلك أنهم كانوا يحمونهم من أعدائهم.. لذا لا ينبغي أن تسيطر علينا الآلام؛ فتخرجنا من حقيقتنا.. أن تطمس ذكرياتنا الحزينة مبادئنا.. بل يجب أن نمثل المسلم الحق.. القوي الرحيم.. العادل المتين.. هذا ما يفرقنا عنهم.. نحن نشرنا ديننا بالرحمة والعدل؛ فحكم وساد.. وأرادوا هم أن ينشروا ثقافتهم الشوهاء بالعنف؛ فعاثوا في الأرض الفساد.. نحن دعاة حب.. وهم دعاة كراهية.. نحن السلام، وهم دعاة حرب.. نحن نقول: هيَّا إلى النور.. وهم يجروننا إلى الظلام..»

مسح سليمان ما بقي من دمعات حُسنة العالقة بأهدابها، وهو يمسك بالأخرى كفها المرتعشة. كان متأثرًا مع ما جرى لها، يعلم أنه لم يكن من السهل عليها أن تتعرض لما تعرضت له، أن يترامى جسد أمها أمامها. لكنه أراد أن يعطي لقلبها غربالًا، فتتحكم بمشاعرها، ولا تنزل إلى منزلة العدو.

- «أريد أن أبدأ بالعمل كطبيبة بالطب الأيغوري يا سليمان » كانت تنظر إليه بنظرات بريئة، راجية.

- «ما الذي أتى بهذا الآن؟؟»

- «كلامك هذا ذكرني بمليكة كثيرًا.. كانت من المقربات إلى قلبي.. كنت أنا وهي ندرس الطب الأيغوري لدى الطبيبة

خالدة في كاشغر، ونجري أبحاثنا هناك.. لقد برعت بهذا العمل.. كما أنها مهنة شريفة تساعد الناس وتخفف آلامهم.. بعد ذلك أريد أن أنتقي من بنات الجبل الذكيات المحبات للعلم.. وأعلمهنَّ مما علمني الله؛ بذلك لا يندثر علم الأجداد، وأيضًا نحدُّ من انتشار الأمراض..».

- «حسنًا.. سأرتب لهذا الأمر مع الشيخ يحيى خان.. والقائد مسلم.. كنا قد تكلمنا من قبل عن مشروع بناء مدرسة أكبر.. أعداد الطلاب أصبحت أكبر من استيعاب المبنى الموجود في الجبل..».

* * *

أقدام شيان لم تحمله إلى الفندق، ظَلَّ طوال ذلك اليوم يسير بين شوارع كاشغر، يحاول أن يجمع أطراف الأحجية ليجد لها حلًّا، بدأت فكرته تنحو نحو الصورة التي أعطتها له ليلك، قد تظهر الضحية بصورة الجاني أحيانًا، بدأت الصورة تتجلى أكثر فأكثر، الكثير من الأسئلة، والأجوبة شحيحة جدًّا، قد تصل إلى العدم، لا أحد يدلو بدلوه للعقل الحائر؛ مما زاده حيرة على حيرته.

بجانب مسجد ذو هيئة معمارية فريدة، لا يوجد صوت صلاة، الناس لا يدخلون إليه، أمامه العديد من أفراد الشرطة المدججين بالسلاح. أراد شيان أن يتجرأ قليلًا ويحاول الدخول إليه، إلا أن أحدهم منعه وبقوة، أبرز شيان هويته، لكنها لم تشفع إلا في أنه تلطف في صدِّه.

- «تمنع السلطات دخول الذين هم تحت سن السبعين إلى المساجد.. كما أنك لست من أبناء المدينة.. يمكنك التجول في أماكن أخرى يا صديق..»

كان الشرطي يمد يده بأكملها أمام شيان، يمنعه من الدخول إلى المسجد الخالي تقريبًا من المصلين.

- «حسنًا، سألقي نظرة من هنا فقط..» قال بتبرُّم.

لم يمانع الشرطي، وعاد للحديث مع رفاقه من أفراد الشرطة، تاركًا شيان وفضوله أمام عتبات المسجد البنية. خلال تلك الدقيقة، خرج رجل عجوز من الداخل، يحمل في يده عصا خشبية يتكئ عليها، ويضع على رأسه قبعة بيضاء مُطرَّزة بخيط ذهبيٍّ، جلس ببطء يرتدي حذاءه الجلدي القديم، اقترب شيان منه ببضع خطوات، لكن الآخر لم يبدِ أي ردة فعل.

- «كيف حالك أيها السيد؟»

كان شيان ينحني أمامه باحترام، ويضع يده على صدره.

- «بخير أيها الولد..»

ظل يعارك حذاءه منشغلًا عن النظر إلى شيان.

- «كم هي جميلة هذه المدينة.. حقًّا أثارت شغفي.. أحببتها لأول وهلة رأيتها فيها..».

- «إن كنت تقصد هذه المدينة، فإنها لا تثير اهتمامي كثيرًا»

نهض ببطء، وهو يتكئ على عصاه، وجهه كان يتجعد كأن في قدمه ألم، ثم أخذ يخطو للأمام، وشيان إلى جانبه، ثم أكمل:

- «أما إن كنت تقصد كاشغر ذات البيوت المبنية من طوب اللبن.. المدينة التجارية التي يعلمها القاصي والداني.. وينبعث من داخل المنزل أصوات تصنيع الذهب والفضة والحلي.. رائحة الخبز الطازج.. بائعو الكعك.. السعادة الطافحة في الوجوه.. الغرف المعلقة على المنازل.. تظلل المارة من تحتها.. الأشجار المزروعة في كل شبر خالٍ من البناء.. كانت كاشغر يا ولدي ملتقى للثقافات الهندية واليونانية والفارسية القديمة التي كانت تنتقل إلى الصين وآسيا من الجنوب والشمال.. هنا تتقاطع طرق التجارة الآسيوية والأوروبية.. مدينة التجار والعلماء.. كانت تسمى بخارى الصغرى.. لكثرة علمائها وفقهائها.. ليتك رأيتها؛ سيتناثر الشعر من فمك لمدحها.. لن يأتيَ مستعمر ليجلب لك السعادة.. خذها قاعدة..»

هام الرجل في جدران المنازل يتأملها في حزن كأنه يفتقدها بهيئتها القديمة، يشتاق إلى طوبها اللبني الذي تميزت به هذه المدينة، يحن لصوت طرق الحلي، للأسواق المكتظة بالأجناس المختلفة، للأذان المجلجل في الأروقة، للمتراصين في الصفوف، لمجالس العلم.

- «جميلة..» قالها شيان بعد أن ركَّب صورتها في مخيلته:

- «أريد أن أعرف عنها أكثر.. ليتك تساعدني..»

نظر للعجوز برجاء، وهو ممسك بمرفقه.

- «ما الذي تريد أن تعرفه؟؟»

- «أمورًا أخرى.. لا أقصد التاريخ والحضارة.. بل الإنسان، أريد أن أُفَرِّق بين الجاني والضحية..».

تضيقت عينا العجوز، تجعدت ملامحه أكثر، ظل صامتًا، ثم طلب من شيان أن يعطيه ورقة وقلم، تعجب شيان، لكنه ظنَّ أنه سيكتب له معلومات، ربما يخاف أن يسمعه أحدهم، لكنه كان مخطئًا في ظنه؛ كتب العجوز أربع كلمات فقط:

- «خضر أوروزلي - أتاجورت - ألماتي - كازخستان».

- «اذهب إلى هذا العنوان.. ستتجلى لك الحقائق.. لا يمكنك النظر من الداخل.. حيث الأفواه مُكَمَّمَة، والأعين معصوبة..».

- «كيف سأجده؟؟» شيان يتفحص الورقة بدقة.

- «اذهب إلى العنوان وستجده..»

قالها، ثم مضى لحال سبيله دون أن ينطق بشيء، كأنه لا يعرف أحدًا.

انفرجت أسارير شيان، سيقوم برحلة إلى كازاخستان إِذَنْ، هناك سيقابل هذا الرجل، وسيعرف تفاصيل الحكاية، ستصادفه الأجوبة هناك، ستكتمل الصورة، ويتضح كل شيء.

شيان قد نسي موضوع التخرج، نسى أن ليلك تنتظر منه معلومات لتدونها، الآن هو يقوم بمشروعه الخاص، بالبحث

خلف الإنسان الذي استثاره الظلم فأباه؛ ليكشف الحقيقة الكامنة وراء الاضطهاد المُمَارَس ضد فئة لا ذنب لها إلا أنها من عرقية الأيغور، وآمنت بدين الإسلام.

* * *

# الفصل السادس

الازدحام شديد، لكنه لا يزيد النفس إلا راحة، وحر الشمس لا يزيد الروح إلا برودة، لا صوت فوق أصوات التلبية، والابتهالات، والأدعية. الكل يناجي ربه بما أثقل كاهله، بما قد شغل عقله ولُبَّه، لا تكاد تجد مكانًا لتجلس فيه، الحركة متسارعة، والبياض يغطي الأجساد والقلوب.

في الجهة الشمالية من الحرم المكي يقف باب السليمانية شامخًا مفتوحًا على مصراعيه، يستقبل ضيوف الرحمن، يُذكر بذلك السلطان المعطاء الذي سرح من الشرق إلى الغرب فاتحًا وغازيًا (السلطان سليمان خان) الخليفة الثمانون للمسلمين، وثاني من حمل لقب «أمير المؤمنين» من آل عثمان، وخليفة الدولة الأقوى في ذلك العصر. هنا التقاطع بين العرب والعجم، هنا الدليل القطعي بأن التسابق بالقلوب والأعمال، لا بالأحساب والأنساب، هنا يعلو الإسلام، ولا يُعلى عليه.

بين الجموع الملبية تقف السيدة فاطمة تتحسس جدران الحرم؛ لتفرِّق بين الحقيقة والخيال، رحلة شاقة قطعتها لتصل أخيرًا إلى هذه الأمنية، كان الخيار بين أن تصل إلى الأراضي المقدسة، أو أن تكون في دارها وبين ذكرياتها، لكنها اختارت الأولى، وتحملت تكاليف هذا القرار - من يخرج من داره وبدون موافقة السلطة لا يمكن أن يعود إليه ثانية - عبر رحلة شاقة قامت بها مع مليكة من خلال جبال أفغانستان بهويات أوزبكية مزورة كانت أشبه بالمرور من فوق جهنم، نجحت بشكل غير متوقع؛ اختتمت هذه الرحلة ببيت الله الحرام.

- «الحمد لله.. الحمد لله..» كانت السيدة فاطمة تتمتم، ودموع الفرح تذرف من مقلتيها.

- «من كان يتوقع؟ الحمد لله.. ليرضَ الله عن عبد الحق.. لقد سعى كثيرًا ليُخرج لنا هذه الأوراق..»

ثم أردفت بحزن:

- «من يعلم ماذا يعاني الآن؟؟.. ليكن الله في عونه، ويخرجه من بطش الصينيين..»

قالت مليكة بحزن:

- «آمين..».

توجهتا بعد ذلك إلى الساحة الواسعة، كان الزحام أخف منه أمام الأبواب، أذَّن المؤذن لصلاة الظهر، كان صوتًا مهيبًا، الكل يفهم معناه، وما يقصده، وما يدعو إليه باختلاف الألوان والأشكال والألسن؛ ارتصَّ المصلون بأعدادهم المهولة في صفوف منتظمة، وقفوا شامخين منكسرين، منتصبين بذلة عزيزة، وهذا ليس ضربًا من التناقض، لكنه التوافق عينه، عزيزين بإسلامهم، متذللين لخالقهم، شامخين بما يؤمنون به، ويدعون إليه، منكسرين أمام بارئهم يطلبون منه العون والمنعة. هم الفقراء إليه، الأغنياء عما سواه، المحتاجون إليه، المكتفون عما دونه؛ بهذا تستقيم أنفسهم، وتهتدي أرواحهم.

في حركات منظمة، بصوت واحد، في اللحظة نفسها يقومون بالشيء نفسه، ويكأنهم يسيرون وفق ناموس الكون!! شموسًا، وكواكبَ، وأقمارًا ومجراتٍ. لا ترى عينك فيها مخالفًا، كذلك هم. بدقة متناهية ينتقلون بين حركات وسكنات

صلاتهم؛ حتى أتموها؛ فخرجوا منها بغير ما دخلوا فيها.

- «أنتنَّ تركيات؟؟»

قالت شابة ذات سحنة تركية، تبدو كسكان البحر الأسود، ترتدي حجابًا أسودَ ملفوفًا على رأسها ورقبتها بالطريقة التركية، وتلبس جبة سوداء تغطي كافة جسدها، تجلس بجانب مليكة:

-«لهجتكنَّ تركية، لكن غريبة بعض الشيء، لا أفهم منها إلا بعض الكلمات.. لعلكنَّ من مناطق لا أعرفها».

- «نعم، نحن تركيات، لكن ليس بمفهومكِ»

علت ثغرها ابتسامة صادقة.

- «لم أفهمكِ!»

- «ما عنَيته أننا نحن وأنتم نتقاطع في الأجداد.. كلنا من عرقيات تركية، تقطن وسط آسيا قبل الهجرة.. كلنا نعود في الأصل إلى عشرين قبيلة، يُعزون كلهم إلى(رك بن يافث بن نوح غ.

تمتمت الأخرى: «غ» وهي تهز رأسها وتستمع بانسجام تام

- «هذه القبائل هي: (بجنك peçenek، جكل cigil، قبجاق Kıpçak، تخسي tuxsi، يغما yağma، يماك yemek، أغراق uğrak، بشغرت başkurt، جرق caruk، يسمل yesml، جمل cumul، قاي kay، أيغر uyğur، يباقو yabaku، تنكت tünküt، تتار tatar، ختاي xatay، قرقز kırğız، تفغاج tavğaç، أوغوز oğuz)».

- «هل هذه القبائل كلها تركية؟!» قالت الفتاة باستغراب.

- «نعم، لكن القبيلة التي تقطن تركيا الآن هي قبيلة الأوغوز، وهم الذين أسسوا الدولة التركية بعد هجرتهم إلى الأناضول.. وأنتِ من نسل هذه القبيلة..».

- «وأنتِ من أي القبائل يا أختي؟..»

قالت بتلهف كتلهف الأطفال البريء.

- «أنا من قبيلة الأيغور.. ونحن قبيلة تركية عريقة تسكن غرب الصين.. لنا مع الصين صولات وجولات.. كانت لنا دولة عام ٦٣٠م، ومن ثَمَّ أصبحت مملكة عام٦٤٦م بعد أن ثبَّت الأيغور أركان حكمهم قاموا من ناحية أولى بتوحيد القبائل التركية من حولهم، وزيادة الضغط على الصين من ناحية ثانية، وفي عام ٧٥١م أي في بدايات نشوء مملكة الأيغور الثانية هُزِمت الصين هزيمة ساحقة في معركة ميدان تالاس على يد أتراك القارلوق والعرب المسلمين؛ مما أدى إلى انكسار شوكة الصين في المنطقة على نطاق واسع.. وبما أن الحرب سجال؛ فقد هاجم العدو الأيغور، وأثر فيهم؛ فانقسمت الدولة إلى شرقية وغربية، أما ما يُعرف اليوم بتركستان الشرقية (طورفان وكاشغر) فهو المكان الذي أتيتُ منه..

ونظرًا لوقوع دولتنا على طرق التجارة ما بين الشرق والغرب تطورت من الناحية الاقتصادية على نطاق واسع.. وبسبب

ذلك حدث تطور كبير فيها منذ بداية القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي في الأدب والفن معًا، وما إلى ذلك بشكل كبير.. ونظرًا لهذا التطور الكبير للأتراك (للأيغور) في تلك المجالات؛ نرى اليوم أن كلمة الحضارة باللغة التركية عبارة عن لفظ اسم هذا الشعب بشكل خاطئ؛ فعندما نريد أن نقول حضارة فإننا بالتركية سنلفظها «uygar» وهي تحريف لكلمة «Uygur» أي أيغور.. وهذه هي قصة بلدي يا حبيبة.. الذي أتقاطع به معك في الجذور والأصول السحيقة.. كما تجمعنا راية الدين، وهذا أهم شيء..».

-«يا لهذا الجمال! كل هذا خلف تلك الجبال والأودية والأنهار.. سررت بمعرفتكِ ومعرفة بلدكِ، أتمنى لو آتي لزيارتها يومًا..»

كانت الفتاة سعيدة بهذا اللقاء الزاخر بالفائدة، وبتركستان الطافحة بالحضارة.

- «ليتك تستطيعين.. نحن محتلون اليوم من قِبَل الصين.. هذا الاحتلال بدأ في ١/١٠/١٩٤٩م.. تركستان لم تعد تركستان كما في السابق.. إنها شنجيانج الذي يحكمها الصينيون بقبضتهم الحديدية انتقامًا وحقدًا..»

أصبحت عيناها نديتين، وتريد البكاء، اكتسى وجهها بملامح القهر، لِمَ تحول الوجه الجميل لموطنها إلى وجه دامٍ حزين؟؟

- «لماذا أسموها شنجيانج؟» أزعجت هذه المعلومة الأخرى، أرادت أن تظل الصورة التي رسمتها لتركستان بهية دون أي تشويه.

- «ليجعلوها إقليمًا من أقاليم دولتهم.. وشنجيانج تعني المستعمرة الجديدة.. لذلك هم يمحون حضارتنا؛ ليجعلونا تابعين لهم.. يغسلون عروقنا بالقوة.. لنكون صينيين مثلهم.. هذا لن يكون أبدًا..»

قالت بحزم. كانت الدماء حارة في عروقها الأيغورية الأصيلة، وروحها المسلمة تلتهب بين جنبيها.

«الله المستعان..» قالت الفتاتان، وذهبتا في وجهتين مختلفتين، لكن شعورهما باللحمة لم يذهب؛ فوحدة العرق، والدين، والهوية لا تتحلل بمسافة أو زمن.

* * *

الساعد يشدُّ الساعد، الظهور محنية تحمل الطوب، والأيدي متشابكة، والثياب مُلَطَّخة، والعزائم مشدودة، والأغاني القومية القديمة تُردد، تتبعها أناشيد إسلامية عربية مألوفة، الأنفاس متلاحقة، وقطرات العرق تتصبب من الجباه، الأرواح تغمرها السعادة، الجميع يعمل بجد، البعض يحفر، والآخر يخلط الطين، والطوب يجفف، والجدران تُشَيَّد، والمباني تكتمل.

الصغير والكبير يبذل المستطاع في إتمام هذا المشروع، بعد تدبير بعض المال لإنشاء مدرسة ومركز طبي في الجبل الكبير. كان التعليم مقتصرًا على الحلقات العلمية، لكن ذلك لم يكن كافيًا لإنشاء جيلًا مقاومًا للظلم والاحتلال، جيلًا يحمل على عاتقه بناء تركستان الجديدة، الهجرة والخروج من تركستان لكل هذه الأعداد أمر غير معقول، كما أنه مُكَلِّفٌ ومستحيل، أيضًا الدخول إلى المدن والقرى التركستانية في الداخل يُعَدُّ أمرًا مستحيلًا وخطرًا، هذا معناه الذهاب إلى الموت المحتَّم؛ ففيه قضاء على الأرواح، وطمس للمعتقدات، وذوبان للهوية الأيغورية الإسلامية؛ لذلك قرر الشيخ يحيى خان، والقائد مسلم أن

يتم التركيز على النشء الجديد من الجيل الذي يُؤمل منه أن يكون النواة الأولى لتركستان الجديدة، وأن يعيد الحضارة التي كانت أصلًا من الحياة اليومية لهذا البلد وساكنيه قديمًا.

للحضارة عينان لا تبصر المستقبل المشرق إلا بهما: نور العلم، وضياء الصحة؛ فبهما تُستأصل أمراض المجتمع الجسدية والروحية، وأيما مجتمع يُبنى على هذا الأساس يرقى، وإن كان صغيرًا كبيئة الجبل.

- «سيقوم الشيخ يحيى خان بتأهيل معلمي الدين.. الأخوة المتخصصون بمجالات أخرى يسجلون أسماءهم مع تخصصاتهم.. سيتم الفرز بحسب الاحتياج.. سيتولى هذا الأمر الأخ سليمان تركستاني.. التدريبات البدنية سيترأسها منصور كوتشاري.. سنحتاج إلى أخوات معلمات أيضًا.. ستتكفل بهذا الأمر الأختان: عائشة، وليلى؛ فقد كانتا معلمتين في كاشغر قبل اعتقالهما.. الأمور الطبية سيعمل بها الذين لهم السبق والخبرة في هذا المجال.. سنفرد قسمًا للطب الأيغوري الذي برع فيه أجدادنا، ستترأسه الأخت حُسنة.. الجميع على رأس عمله.. هَيَّا..»

كنتُ ألقي المهام، العرق لم يجف من الجباه بعد، الأيدي ما زالت ملطخة بالطين، لم يكن هناك أي وقت، أو مجال لأخذ قسط من الراحة، عجلة الباطل لا تتوقف فتأكل كل ما هو أمامها بنهم وجشع، كذلك يجب على الذين يديرون عجلة الحق ألَّا يبطئوا، عليهم أن يسيروا مبصرين، مسرعين، لا يوقفهم شيء.

- «متى سنبدأ بمزاولة المهام أيها القائد مسلم؟؟»

قال أحد الشبان المتحمسين.

- «من صباح يوم الغد.. بإذن الله.. كل من أُوكلت إليه مهمة عليه أن يباشر بها مع مجموعته بكتابة الخطط والآليات.. ستبدأ اجتماعات الإعداد بعد صلاة العصر اليوم إن شاء الله..».

خلال طريق عودتي كنتُ أستمع إلى أصوات الأمهات يتحدثنَ بسعادة. أسمع الواحدة منهنَّ تقول لابنها:

- «إن لم تكن مؤدبًا؛ فلن يدعك القائد مسلم تدخل المدرسة.. يجب أن تلتزم بتعاليم الطالب المجتهد..»

والأطفال أيضًا يخبرون بعضهم بما سيفعلونه هناك: ما الذي سيدرسونه؟ كيف سيقضون وقتهم؟ كان هذا التغيير حديث الجميع.

رأيت الشبان يتأملون ويفكرون، كل منهم يأخذ زاوية بعيدة ينفرد بها عن الناس، يحمل بيده ورقة وقلم، يُدَوِّنُ ما يريد أن يضيفه في اجتماع مجموعته.

هذا الوضع لم يكن استثنائيًا، لقد كان الحال كذلك قبل سنين في مدينتي عندما كنت صغيرًا، كنا نتعلم ليلَ نهارَ، كان أبي يقول لي دائمًا: «يرحل المستعمر متى اشتعل نور العلم والإيمان في قلوب الذين يدافعون عن أوطانهم» كنتُ أستلهم من كلامه، كلماته كانت مجوهرات أُطَوِّقُ بها عنقي، وأرددها على مسامع أصدقائي، وأفتخر بها في المجالس.

كان يومًا أسودَ بالنسبة إليَّ ذلك اليوم الذي رحل فيه، كنتُ في الثانية عشرة من عمري، كنتُ أظنني رجلًا حينها، في تلك الليلة المشؤومة طرق أحدهم الباب، أمي وقتها كانت تلعب مع أخي الصغير، كان رضيعًا في حجرها، أما أنا فكنت أرسم

الخرائط، كنت أرسمها في أوقات الفراغ باستمرار؛ هذا ما جعل والدي يقول بأني سأصبح قائدًا أحرر تركستان من الصينيين، وأعيد كاشغر لتكون عاصمة الحضارة في القارة الآسيوية.

طلب مني هذا الطارق الإذن بالدخول إلى حيث توجد أمي، قد أزعجني هذا الأمر قليلًا، لست طفلًا ليخفي عني أمرًا، ويخبر به والدتي، عندها وقفت في الممر سرًّا، وتنصتُّ على ما يقوله، تلعثم الرجل كثيرًا قبل أن يخبر أمي بأنه قد أُلقي القبض على والدي هو وبعض الرجال الذين يعملون معه في المقاومة، وأن الصينيين قد قتلوه حرقًا؛ لأنه ضُبط بأعمال مشبوهة؛ صعقني ذلك الخبر صعقًا، بكيت بصمت، كان خبرًا فوق البكاء، فوق الصراخ، فوق أي ردة فعل عادية أو متوقعة.

ظنت أمي بأني لم أسمع ما قاله ذلك الرجل، قالت بأن أبي سيسافر بعيدًا عن كاشغر لوقت طويل، أما أنا فقد سافر جزء من روحي ولم يعد بعد تلك الليلة.

ثم عندما أصبح أخي الأصغر في سن الرابعة قامت الصين بدوريات أخذ الأطفال التركستانيين بحجة أن أهاليهم لا يقدرون على تربيتهم تربية حضارية، كان الدور على أخي في أحد الأيام الشتوية، أُخذ بالقوة وفي وضح النهار؛ عدت من المدرسة ذلك اليوم راكضًا إلى المنزل، أخبروني أطفال الحي بأنه قد تم مداهمة البيت وأخذ أخي، كانت أنفاسهم تتقطع، وهم يروون لي ما حدث، كانوا خائفين، يومها ركضت مسافات طويلة كالثور الهائج لا أدري إلى أين، شعرت أنني قد فرَّطت في أمانة والدي، وأضعت أخي الأصغر، كبرت مع أمي التي كانت تخفي عني حزنها، لكنني كنت أراه في بريق عينيها المنكسر، استمر هذا الحال لليوم الذي ظننت فيه بأنه سيكون اليوم الذي سأجلب فيه السعادة إلى منزلي من جديد، لكنني فقدتها هي الأخرى، وفقدت بهجة روحي معها، فقدت أمي!

في طفولتي وفي كل مرة أفقد فيها شيئًا كنت أركض إلى بيت خالتي؛ لأخبر حورية سعادتي بما آلم صدري، كنت أجد عندها الكلمات التي فقدتها مع والدي، أما في اليوم الذي فقدت أمي فيه فقدتها هي الأخرى؛ لذلك لم أعد إلى المنزل بعدها، لم أجد مكانًا ألتجئ إليه؛ ركضت خارج المدينة، سرت كالمجانين بدن وعي، بكيت كما لم أبكِ من قبل، ضَيَّعْتُ كل أمانات والدي: أخي، وأمي، وأيضًا أضعت رفيقة عمري التي لم يجف الحبر الذي كُتِبَ به عقد قراني بها بعد، فقدت زوجتي في يوم زفافها إليَّ، في يوم فرحتي بأن نلت قربها، لم أستطع تحمل كل هذا؛ جئت لهذا الجبل لأجد فيه دوائي، هنا لن أفقد شيئًا مجددًا، فلم يعد لي شيء لأفقده؛ فوهبت روحي رخيصة حتى لا يفقد الآخرون أحباءهم؛ حتى لا يُختطف الأطفال؛ فيكبرون بعيدًا عن أمهاتهم، حتى لا يفقد الأولاد آباءهم؛ فيكبرون أيتامًا يتعطشون لريِّ الأبوة.

أحارب بكل ما أُوتيت من قوة؛ حتى لا تُقتل الأمهات، ولا تُختطف الفتيات إلى المجهول، حتى لا تُعاد المحارق، ولا تتكرر الحروب، حتى لا يرى الأطفال المجازر والملاحم، حتى لا يخفي أحدهم ما يعتقده، ويؤمن به؛ لنعيش أحرارًا كما وُلدنا، ليكون الإسلام عاليًا، حتى لا ينحني جبين الوطن، لنعيش بسلام، ونموت كذلك.

* * *

قُبيل الظهيرة، وحين كانت ليلك تعمل في إحدى المطاعم التي تتنقل للعمل فيها لتؤمِّن معيشتها ومعيشة أختها الكبرى، كانت الأخيرة تجلس قبالة النافذة، تُدَوِّنُ في مفكرتها القديمة كعادتها؛ إلى أن فاجأها طرق طارق. لم يعتد الزوار على المجيء

إلى هذا المنزل طوال مدة عيشهنَّ فيه، كان منزلًا صغيرًا يتكون من باب خارجي، وسلالم مؤدية إلى شقة واحدة، فيها غرفة نوم وأخرى للمعيشة، كان كافيًا بما فيه الكفاية لتكوِّن الفتاتان حياة مستقرة.

ليلك وأختها لا تحبذان التعرف على أصدقاء جدد، اكتفين بدفن الذكريات في أمل العودة إلى الوطن. حق العودة بذرة نبتت وتورقت في قلوبهن، فلا تزاحمها فيه أمنية، أما التوقعات فتُركت لعلام الغيوب. لم يُطِلْنَ التفكير بما وبمن سيكون في انتظارهن تحت سماء الوطن، على الأرجح لن تكون الأوضاع جيدة، لن يكون المنظر سارًّا، لا يعلمنَ من بقي من أحبائهنَ ليرتمين في أحضانه وقت العودة للديار، ربما حجارة المنزل المليء بالذكريات، أو أشجار الحديقة الخلفية، ربما الكتب على الرفوف، أو لا شيء، قد تنكرهنَّ المدينة، قد لا تعرف أرضها وقع أقدامهنَّ؛ فالمدينة تبدلت أحوالًا بعد حال.

أردنَ أن تمضي سنوات عيشهنَ في بكين بسلام، همَّت خاتون بالعودة بأي طريقة؛ لكن حرصها على ليلك ومستقبلها هو ما جعلها تتريث إلى حين إتمامها لدراستها، عندما فقدت خاتون كل شيء؛ وَهَبَتْ حياتها لليلك، «أنتِ وردتي التي أرويها بحياتي» هذا ما تردده على مسامع أختها الصغرى بشكل مستمر، ليلك لا تعرف أبًا أو أمًا، لا تعرف أخًا أو أختًا منذ كانت في العاشرة؛ أصبحت كبيرة جدًّا؛ فهي امرأة حكيمة في جسد طفلة منذ ذلك العام.

قبل ذلك كانت طفلة صغيرة، جميلة، كثيرة البكاء، لا تعرف سوى الدلال؛ فهي أصغر ثلاث أخوات وأخ كبير. كانت الأثيرة عند والدتها وأخواتها كسحابة معطاءة غمرتها خاتون بحنان الأم، ونصح الأب، وعطف الأخت، وسند الأخ، كقطع الأحجية سدَّت ثقوب قلبها، كانت كل ما يمكن أن تكونه لها، لم تحب شيئًا كليلك. أغفلت الطرف عن جميع الأمنيات عدا سعادة وردة دارها وبسمة حياتها.

في صباها كانت خاتون أكثر نشاطًا وحيوية، وطافحة بالطموح، وتشع بالأمل، حلمها أن تكون كاتبة كبيرة، تعجُّ المكتبات بحبرها، درست الأدب الأيغوري والعربي، عاشت حياتها بين دواوين الشعر وكتب الأدب، لديها مكتبة تزخر بالكتب، تقضي فيها معظم وقتها، تلقي الشعر في مدارج الثانوية، وفي تجمع العائلة، كلماتها وقودها للتحرير، تركستان هي كنها ومكنونها، وعبد الله هو فارسها الذي يمتطي جواد المعركة، ذهبت عينها لتتبع بعض الكلمات.

«يا غائبي الموجود.. يا بعيدي القريب.. يا هناء حياتي.. وسلام مماتي.. يا معنى حاضري.. وعبق تاريخي.. أبَيْنَ أطياف الذاهبين.. أو في قوافل العائدين أنت؟؟.. قُلْ لي بحق الله كيف أنساك؟!!».

مَرَّرَتْ أناملها الرقيقة على حروفها الهزيلة، ظلت تتحسس تلك الأوراق الشاحبة التي ما برحت تنقش عليها، إنها تحفظ كلماتها المرسومة عن ظهر قلب؛ فهي متنفسها في غياب الهواء، وأنسها في زمن الوحشة، وبقايا أملها الغريق في عمق اليأس. تذكرت يوم قرانها وهدية زواجها الأولى، خاتمها الذهبي الأنيق، تتربعه جوهرة حمراء منحوت في قلبها بالعربية حرف (ع) بشكل مائل، ملابسها البيضاء السابغة، وعطرها الرقيق الفواح، والدتها ووالدة زوجها عن يمينها وشمالها تحرقان لها الحناء. أخذت كل واحدة منهنَّ كرة صغيرة من الحناء ووضعتها في الكف القريب منها. الفتيات يحمنَ حولها كحور العين، يتمايلنَ ويرقصن، صديقاتها وبنات حيِّها، ليلك لم تفلتها ولا للحظة، كانت متشبثة بثوبها، لم تُرِدْ أن تتركها أختها، وترحل مع زوجها الذي ينتظر خارج المنزل مع الرجال، يتحين لحظة اللقاء.

تلك الليلة حملت أكبر الأفراح وآخرها، في تلك الفترة بالضبط قامت السلطات الصينية بدوريات عشوائية بتزويج الفتيات الأيغوريات من رجال صينيين؛ حتى تتم عملية الدمج الحضاري الذي تسعى الصين لتطبيقه في إقليم شنجيانج، وما هو إلا تذويب عرقي لذلك الشعب العظيم الذي لا يزال يتشبث بهويته بالرغم من قَصِّ أجنحته المُحلِّقة.

ذلك الصقر الجامح لا يموت بجِلد غيره حتى لو نتف الأعداء ريشه، كذلك كانت خاتون القوية، لم يشفع لها عقد قرانها الذي كتبه شيخ الحي، لم يكن زواجًا كما تشتهيه السلطة، لم يُطبَّق فيه القانون الصيني، كان قرانًا إسلاميًّا، بزينتها وجمالها أُخذت خاتون عنوةً، ليلك لم تفلتها، صرخت بكل ما تملك من قوة: «لن تأخذوا أختي كما فعلتم بإسماعيل..» كانت طفلة العاشرة برعمة صغيرة في بستان العائلة، ذاكرتها ممتلئة بإسماعيل النابغة، صديق طفولتها الشجاع، عيناها تشعُّ ببريق قوته، دمها يعجُّ بحماسته، كان يعلمها الأحرف العربية، كانا في الرابعة في ذلك الحين.

إسماعيل الذي كان يدافع عنها، يعدها بأن يحرِّرَا تركستان معًا، طفلًا بجسده، رجلًا بطموحه وعقله. صفعها ذلك الجندي صفعة كادت تنثر ملامح وجهها على الأرض، أُخذت هي الأخرى بجانب خاتون، وفي مكان ظالم مليء بالفتيات والنحيب، ظلت خاتون تتلو آيات القرآن التي تحفظها، وتمسح بها على رأس ليلك؛ لتهدئ من روعها. أخفت مشاعرها الهلوعة لتكون الوتد المتبقي لأختها الصغرى، نصيبها كان مظلمًا، رجلًا بدينًا فظًّا، لا يعرف رحمة أو شفقة، كان حيوانًا مفترسًا في هيئة إنسان، ضابطًا متعطشًا للدماء، السُكر له عادة، والعربدة له عبادة.

لم تكن خاتون المظلوم الوحيد لكنها الأكثر تضررًا من بين الجميع، عاشت ليالي سوداء تحت سقف بيته الموحش، تُصاب بالغثيان كلما تذكرت رائحته النتنة وأنفاسه الكريهة. تنتابها رعشة خوف تسري على طول جسدها كلما رأت أثرًا على جسدها من آثار السياط التي تشوي ظهرها مساءً، تواري ندبات الأظافر المغروسة في لحمها الغضِّ خلف ملابسها الطويلة، كانت عنيدة في صبرها، لم تدع الظالم يستلذ بظلمه، لم تكن غنيمة زاكية، كانت شوكة في حلق سجانها.

السلوى الوحيدة لها في لُجِّ الظلم هي ليلك التي تذهب إلى المدرسة البعيدة جدًّا، وتعود لتسرد لها كل ما رأته نهاية اليوم. فضَّلت أختها أن تكون في مدرسة بساعات أكثر؛ حتى لا توجد في البيت أكثر الوقت. خاتون تمحو كل ملامح الحزن من وجهها وتستقبلها بفرح، تعانقها لترتد إليها نبضات قلبها، تحذرها من الحديث إلى أي شخص غريب، تبتهل وتدعو الله ليلَ نهارَ لينجيهما، ترتقب الفرج مع كل فجر، إلى ذلك الفجر الذي كان الفرج فيه ملموسًا، مات ذلك السجان في سجنه، فمه يرغي زبدًا، مات مختنقا بجشعه، كبده لم تتحمل كمية الكحول التي شربها تلك الليلة؛ انشغل الجميع بضابطهم المحترم، حين هربت خاتون ومعها ليلك إلى الشقة التي هما فيها الآن في وسط بكين في شارع شعبي يعجُّ بالناس؛ اعتكفت خاتون في مكانها، لم تتغلب على ما عاشته بسهولة، الكوابيس تلاحقها في منامها، وأحيانًا أخرى في يقظتها، اكتفت بمحيطها الآمن، فترى الخارج عبر عيون ليلك المنطلقة.

اشتد طرق الباب أكثر، خفق قلب خاتون بشدة، نزلت من على كرسيها الخشبي، دلفت الأوراق التي في حجرها إلى السرير الذي بجانبها، تسللت بهدوء على السلالم؛ حتى وصلت إلى الباب الموصل للخارج، وضعت حدقة عينها على الثقب في الباب، لم تجد أحدًا، تأملت أكثر؛ لم يصادفها شيء، ظنت أن أحدهم قد أخطأ في العنوان، أثناء عودتها تحشرجت قدمها اليسرى بظرف ورقي محكم الإغلاق، حملته بيديها، وتفحصته، لم يكتب عليه اسم «ربما هو مرسل إلى ليلك.. ربما أرسله

شيان.. لديه الكثير ليقوله عن رحلته، أو أحد زملائها.. قد أدخله من فتحة البريد..» أضمرت ذلك في نفسها، ثم عادت لتنهي قراءتها إلى أن تعود أختها.

* * *

# الفصل السابع

على جبل إرشييس الشاهق - الذي يُعتبر ثالث أعلى جبل في تركيا - تقع مدينة قيصري. المدينة ممزوجة الثقافة بين الأزرق والأحمر، تختلط حضارتها السلجوقية والعثمانية مُكوِّنة نتاجًا عريقًا، وتعد هي الحاضنة الأكبر للجالية الأيغورية في تركيا.

قيصري هي عاصمة إقليم الأناضول الذي استوطنه الأوغوز قديمًا؛ لتقوم فيها أعظم خلافة إسلامية. التجذر العرقي والوحدة العقائدية أفسحت المجال للأيغور بالفرار من التنين الأحمر المستبد إلى الهلال الإسلامي والنجمة التركية تحت الراية الحمراء الحنونة. تنتشر المنظمات الأهلية الأيغورية التي تسعى للتعريف بقضيتهم المقدسة.

تسعة وستون عامًا وتركستان في سجن كبير تحت القبضة الحديدية - يسميها البعض بفلسطين آسيا الوسطى - وأبناؤها ينقشون حلم العودة على أرض أبناء العمومة.

السيدة نور الله وزوجها حميد جوكترك عضوان فعَّالان في منظمات التعريف، ويترأسان معظم الحملات الثقافية التي تنقل ثقافة شعب الأيغور إلى الشعوب الأخرى، أَسَّسَا مؤسستهما التعريفية الخاصة، كما افتتحا جمعية خيرية للفارين من داخل تركستان إلى تركيا.

كانت السيدة نور الله تتنقل بين الغرف، تضيف الترتيبات الأخيرة على الشقة، وترتقب بفارغ الصبر وصول صديقة الطفولة، رمت سنوات عيشها الطويلة وراء ظهرها، وظلت تتذكر كل الأشياء التي تريد أن ترويها للسيدة فاطمة.

فيض آباد كلها كانت تتحدث عن صحبتهما، تركضان في الحقول الواسعة، ترشان بعضهما بماء الغيول، في القرية الخضراء لا يوجد حجر أو شجر لا يعرف فاطمة ونور الله. كان والد نور الله في السجن، أُعتقل في العام الذي وُلدت فيه. كان إحسان درغا والد فاطمة يملك دكانًا صغيرًا في فيض آباد، فلا يعود إلى منزله إلا بعد أن يوصل الحاجيات إلى منزل صديقه المعتقل، كان انعكاسه في العالم الحر.

قبضة الصين آنذاك لم تكن كما هي عليه الآن، كانت في سنينها الأولى؛ لذا كان هناك مجال للتنفس بخلاف الآن، لم يكن إحسان ليفرِّق بين فاطمة ونور الله أبدًا، في ليلة من الليالي الشتوية الباردة حدث هجوم على القرية من قِبَل الجيش الصيني، كانوا يبحثون عن المقاومين في القرى، المداهمات عشوائية، اعتقالات بدون تهمة، وقتل دون محاكمة. من تلك الليلة اختلفت دروب فاطمة ونور الله، ولم ترَ إحداهما الأخرى بعد ذلك. مشاعر السيدة نور الله متهيجة، تبكي تارة وتضحك تارة، لأول مرة تسمع السيدة جرس الباب المزعج كأنه موسيقى عذبة، ركضت نحو الباب بسرعة؛ فتحته دون أن تسأل من الذي خلفه.

- «الحمد لله يا أختي.. كنت أعرف..»

كانت تبكي وهي تحتضن السيدة فاطمة، كانتا تهتزان من قوة النحيب. مليكة هي الأخرى أثارها الموقف؛ فكفكفت دموعها المتساقطة بأناملها، وبين دمعاتها تتسلل بسمة فرح إلى ثغرها.

- «عدت لرويتكِ، لكني لم أجدكِ.. بحثنا عنكم في كل مكان»

قالت السيدة فاطمة وهي تمسك بيد صديقتها، وتحتضنها بالأخرى.

على الأريكة جلست السيدة فاطمة والسيدة نور الله تتحدثان، مليكة تصب لهنَّ القهوة، وتستمع إلى أحاديثهنَ التي لا تأخذ مسارًا واحدًا، ما إن تدخلا في قصة حتى تشرعا في أخرى. لم ترَ مليكة خالتها ثرثارة هكذا من قبل، لم تدعا شخصًا عاش في فيض آباد إلا وذكرتاه، لا حجرًا ولا شجرًا، تكلمتا عن الجبال، والوديان الضيقة، والغيول السيالة، عن الآيات التي حفظتاها في مدرسة الشيخ أديب خان، وعن قصص السيد إحسان درغا في دكانه، ومواعظه.

- «ليته يرانا الآن يا نور الله.. لقد أحببكِ أبي كثيرًا.. عندما مات كان آخر ما تمناه هو رؤيتكِ أنت وأختيكِ.. أراد أن يعرف إلى أين ذهبتنَّ.. كنتنَّ أمانة صديقه العزيز..».

- «في تلك الليلة التي داهم الصينيون قريتنا، ومع اشتعال النيران.. وانتشار الأدخنة.. أصابت أمي نوبة فزع مخيفة.. تشنج جسدها بالكامل.. أتى خالي مع أولاده وأخذونا بشاحنة كبيرة إلى الحدود الأفغانية.. كانت مليئة بالناس الهاربين من تركستان.. تركتنا الشاحنة قبل الحدود بمسافة كبيرة.. سرنا مشيًا على الأقدام حتى وصلنا الحدود.

ثم عبرنا جبال (الهملايا).. وجبال (آباهير) مشيًا على الأقدام.. والله كلها قطعناها مشيًا يا أختي.. كانت مناطق غير مأهولة بالسكان.. هناك أطفال صغار ونساء وشيوخ.. كانت حركتنا بطيئة.. أكلنا كل ما لا تتوقعينه لنكون على قيد الحياة.. بتنا ليالي وأشهر في أماكن غير صالحة لعيش الإنسان.. تفشت الأمراض فينا.. بل استعرت كاستعار النار في الهشيم.. ماتت أختاي بالملاريا.. كنا حفاة عراة.. دامت هجرتنا لمدة سنتين.. كان زوجي حميد وعائلته معنا أيضًا.. كنا عوائل كثيرة.. أعدادنا تقلصت كثيرًا عن العدد الذي خرجنا به.. تدبرنا أمور عيشنا شيئًا فشيئًا إلى أن استقررنا في قيصري هنا في تركيا.. لم ننسَ شعبنا، ووطننا، وما عشناه ولا ليوم واحد.. نحن رسائل الأيغور إلى العالم.. عندما قرأت اسمك في ملف الطالبين باللجوء إلى هنا؛ قفز قلبي فرحًا.. شعرت وكأن ريحًا أتتني من الشرق البعيد.. تحمل هواء فيض آباد وكاشغر وأورماتشي.. حللتِ أهلًا، ونزلتِ سهلًا..»

كانت الدمعات تقاطع الكلمات، الغُصَصُ تدافع الجمل، ثم صمتت الألسن وتكلمت القلوب.

- «لقد دعوت الله في بيته الحرام أن يأتيني بكم جميعًا..»

قالت السيدة فاطمة بعد مدة صمت طويلة، كانت ترى تحقق دعوتها، وأول ذلك الفيض كانت السيدة نور الله رفيقة الصغر.

* * *

مع بدايات فجر يوم جديد، أردت أن أسطر فجرًا جديدًا على مستقبل أطفال ونساء وجميع ساكني الجبل الكبير. أنا مؤمن بشدة أن الشعوب المنعزلة لا يمكن لها أن تسود أو ترتقي. الأسباب التي جعلت تركستان في القرون الأولى ذات صيت وكعب هو انفتاحها على العالم، والتقاء خطوط التجارة الأوروبية والآسيوية فيها، وهذا الانفتاح أزهرته نظرة الإسلام

للاختلاف الحضاري بين البشر؛ هذا ما جعل من هذه المساحة المترامية في وسط آسيا مزيجًا من العرقيات التركية والأوزبكية والآذرية وغيرها من العرقيات، تأخذ طابعًا من التنوع والتجانس، فكانت بلدًا ذات صدارة.

أما عندما يتحول الوطن إلى سجن كبير مُسَيَّجٍ فلن يعلم أحد بما يحدث في أرض مساحتها ٦٤٢٨٠٠ ميل مربع. هذا الوطن هو جمرة مشتعلة في قلوب أبنائه اليوم، لم تشغلهم المنافي عن التفكير فيه، ولا بد أن يكون لأي قضية سفراء؛ حتى لا تموت على أرضها، ثم لا تجد من يضع الورد على قبر الانعزال الذي حُكم عليها، وحتى تشتعل نار التحرير كلما أخمدت، لنكن نحن الجمرات الملتهبة لمشاعل الحرية، حتى وإن أبعدتنا المسافات، وفصلت بيننا الجبال، قلوبنا تلوذ تحت راية الوطن المعزول، الذي لم يرد الانعزال عن العالم، لكن أُريد له ذلك. نحن بين خيارين مُرَّيْن: إما الذوبان تحت كف المحتل، أو الانعزال في المناطق النائية والبعيدة كهذا الجبل الحنون، وهذا يجعلنا في معزل عن عكس الصورة الأيغورية الصحيحة، تلك الحضارة المليئة بالحياة، المفعمة بالتعايش.

الصين ذات اليد الطولى، وبسياستها القذرة تطلب من الدول الأخرى إعادة الفارين منها؛ فالعزلة لم تُكتب على تركستان فحسب، بل حتى على أبنائها.

قررت أن أكون من أولئك الشجعان الذين تحدوا هذه القرارات، وانتشروا في الأرض يُعرفون العالم بقضيتهم. كازاخستان كانت خياري وخيار الكثيرين من أبناء الأيغور؛ وذلك لقربها الجغرافي، وأيضًا لوجود مصالح تجارية واسعة بين الصين وكازاخستان، فهي تعض بالنواجذ على طريق الحرير التجاري بينها وبين كازاخستان؛ لذلك تدهن العسل على وجهها قليلًا أمامها.

المسلمون الكازاخيون لا يقبلون تعامل الصين القاسي مع إقليم شنجيانج الذي توجد فيه بعض العائلات الكازاخية؛ للصلة الوثيقة بين أعراق المنطقة. أعطت كازاخستان ٥٠٠ جنسية للاجئين الأيغور. كنت أوضِّب حقيبة سفري الصغيرة، دسست هويتي، ثم صليت ركعتين أطلب فيهما أن يسلمني الله لأتم عملي؛ فأنقل صورة الظلمة التي يعيشها الناس بعيدين عن ديارهم ومدنهم، المتطلعين ليوم العودة، فلا أحد ينوي الإقامة الأبدية في الملاجئ، وإن كانت مدنًا من ذهب.

الأبناء يأكلون الخبز المعجون بذاكرة الآباء، الأطفال في المهد ينامون على ملامح الوطن؛ فتركستان هي الأمنية اليتيمة في قلوب أبنائها. عندما استقرت الشمس في كبد السماء كنت قد استقررت على مقعدي في الحافلة الكبيرة متوجهًا إلى (ألماتي) العاصمة الأولى لكازاخستان. طوال الطريق، وكأي سفر أقوم به أتأمل كل ما يصادفني: الجبال، والأشجار، والصخور.

أرى الثبات في كل هذه المخلوقات، جميعها راسخة في مكانها، تمر السنين والأعوام، يذهب محتل ويأتي آخر وهي لا تزال على عهدها ووعدها رسوخًا وثباتًا. الإنسان وحده إن ثبت فإنما يثبت بقلبه. دائمًا ما كنت أدعو الله بأن يمنح قلبي الثبات بعد كل مُصاب. مع تقدم الأحداث وفقدي المستمر لما ولمن أحب، وكلما هم قلبي بالانهيار، كلما تزحزحت قدمي قليلًا، عندما يصيب روحي الوهن، كلما سوَّلت لي نفسي بترك كل شيء والفرار بعيدًا؛ كان الله يثبت قلبي المضطرب؛ فأعود بأقوى مما كنت عليه.

كل الأحزان تتلاشى في حرف أعلمه لطفل، وفي بسمة أرسمها على أرملة، وفي تصبير المكلومين، وفي تذكير الغافلين، وفي

إشعال رماد القلوب النائمة، وفي تلميع مفاتيح البيوت العتيقة.

سعادتي تجد طريقها إليَّ عندما أجد الطريق إلى قلوب اليتامى والثكالى من أبناء شعبي الصابر. توقفت الحافلة في نقاط تفتيش كثيرة، إذا ضُبِطَ شخص أيغوري لا يملك ترخيصًا للسفر؛ فمآله إلى جهنم هؤلاء، فالسفر أمر صعب على سكان الإقليم، لا بد أن تتعهد بالرجوع، وتكتب مقالات طويلة في انتمائك إلى الأمة الصينية وولائك للحزب الحاكم؛ وإلا فلن تخطوَ شبرًا واحدًا خارج شنجيانج.

كانت هويتي كازاخية؛ لذا لم يثر أحد معي أي جدل، عبرنا الحدود حتى وصلت إلى ألماتي. ألماتي وغيرها من المدن الكازاخية لا تختلف كثيرًا عن تركستان الشرقية؛ فالطبيعة نفس الطبيعة، الخضرة تغلب، الجبال المرتفعة، والجو الممطر، وبرد الشتاء نفسه، حتى البشر هنا يشبهوننا كثيرًا.

كنت أقف بين المسافرين بعد طريق طويل استمر ليومين، أخذت سيارة أجرة وانطلقت إلى مقر منظمة (أتاجورت) المختصة بالقضية الأيغورية من الجهة الإنسانية، يرأسها صديقي المسلم من أصل صيني (خضر أوروزلي).

الكراسي مرصوصة بعضها بجوار بعض، في بداية القاعة الكبيرة توجد طاولة عليها ملفات كثيرة، خلفها ترتص ثلاثة كراسي، يجلس على أحدها صديقي خضر، وعن يمينه وشماله رجلان لا أعرفهما.

هناك نساء ورجال وأطفال يجلسون على الكراسي المقابلة، في كل مرة يتحدث أحد منهم، يأتون هنا ليدلون بما عاشوه في إقليم شنجيانج، أو ما عاشوه في معسكرات التأهيل الصينية، يقصون قصصهم؛ ليتم توثيقها وتدوينها في ملفات المنظمة، ثم تُقَدَّمُ هذه القصص إلى منظمة العفو الدولي، ومنظمات أخرى تعمل في مجال حقوق الإنسان. أشار خضر إلى فتاة تجلس أمامه، في بادئ الأمر كانت هناك بعض الفوضى، وعندما بدأت الشابة بالتحدث صمت الجميع.

«اسمي أينور.. عمري ١٨.. أتيت إلى هنا أنا وأخي.. والدنا مصاب بمرض القلب.. وهو محتجز في معسكرات التأهيل.. قبضوا عليه بتهمة تنزيل تطبيقات ممنوعة على جواله.. فقد وجدوا تطبيق (what's up) وهو مشفر في شنجيانج.. أخبرناهم في قسم الشرطة أنني وأخي قمنا بذلك وليس هو.. وهذه هي الحقيقة، أردنا أن نجربه فحسب.. لم نكن نعلم أن الأمر سينتهي إلى اعتقال والدنا.. لكنهم لم يقبلوا بذلك.. وقالوا بأنه يجب أن يُعاد تأهيله لتطبيق القوانين وعدم الخروج عنها.. أنا خائفة جدًّا على أبي.. إنه مريض لا يستطيع أن يتحمل كل هذا..» اختنقت الفتاة بعبراتها، ربت أخوها على شعرها الأسود الطويل، ضَمَّ رأسها إلى صدره، وهي تهتز في لحظة انفلات قهرها، كان الآخر يكتم أنفاسه، عيناه حمراوان، يريد أن يكون قويًّا أمامها؛ حتى لا تضعف أكثر، شرر عينيه يتطاير، كان كفارس مكبل الأيدي والأرجل.

- «كان الله في عونه.. نأمل أن تستمع المنظمات الحقوقية لهذا.. كوني قوية..» قال خضر وهو يحاول تهدئتها، ويمنع نفسه من البكاء.

رُفعت الأيدي تريد الإذن بالحديث؛ فلم يأتِ أحد هنا إلا ولديه الكثير ليقوله، في الحقيقة يعرف أكثرهم أن نسبة النظر إلى قصصهم المأساوية ضئيلة جدًّا؛ لكنه جوعهم لحرية التعبير يدفعهم إلى التهافت لسرد تفاصيلهم المؤلمة.

- «لقد نجوت من موت محقق.. أُصْدِرَ عليَّ حكم بالحرق حية؛ لأنني أرتدي الحجاب أنا ونساء أخريات في حَيِّنَا..» كانت امرأة ذات ملابس سابغة، وجهها كبدر شديد الإضاءة في ليلة معتمة،

- «أستأذنكم في قراءة نص من صحيفة كتبت ما حدث في ذلك اليوم.. الذي نجوت منه بقدر من لله.. قد أصابني ذلك اليوم مغص شديد ومفاجئ؛ مما اضطرني ذلك لعيادة الطبيب.. وعندما عدت وجدت كارثة يلخصها هذا المقال:

«في صيف ٢٠١٣م في منطقة (كاشغر) امتنعت سيدات إحدى العائلات المرموقة، والمحبوبة في محيطِها، والمعروفة بتمسُّكها بالدين الإسلامي عن خلع حجابهن، فتم حرقهنَّ أحياء عن طريق إضرام النيران في منزلهن وهنَّ بالداخل، بزعم أنهنَّ إرهابيات انفصاليات، وفي أعقاب هذه الحادثة قام النظام الصيني القاتل المُحتل بقتل مجموعة من الشباب الأيغوري العُزَّل في منطقة (قاريليك) عن طريق إطلاق الرصاص عليهم من طائرات بدون طيار، وكان الحادث مروِّعًا للغاية، لدرجة أنهم لم يستطيعوا التثبُّت من هوية هؤلاء الشباب الشهداء إلا عن طريق تحليل DNA لأشلائهم الممزَّقة، أو على الأقل حاوَلوا التثبُّت منها».

«الحمد لله على سلامتكِ..» ردد الجالسون من حولها بعد صدمة الخبر، الذي إما عايشوا أحداثًا مماثلة له، أو عايشها أحد معارفهم.

- «أنا ميربيت عمري ٣٠.. لقد ذهبت أنا وزوجي إلى تركيا لزيارة أبي المريض.. تركت طفليَّ عند جدتهما لأبيهما.. عندما عدت كانوا قد أخذوا والدة زوجي للمعسكرات.. وأخذوا طفليَّ إلى دار الأيتام..»

أخرجت المرأة من حقيبتها صورة، ثم أرتها لخضر

- «هل هذه دور أيتام أم سجون؟؟.. كيف لدار أيتام أن تحوطه الأسلاك الشائكة؟؟..»

أجهشت المرأة بالبكاء؛ رثى كل الحاضرين لحالها، كانت تحتضن طفلها الرضيع:

- «كان هذا الطفل جنينًا في بطني عندما سافرت إلى تركيا.. السؤال الذي يُحيِّرني ويؤرقني بشدة.. متى سألتقي بطفليَّ، إنهما في الخامسة والثالثة؟؟ ما زالا صغيرين على هذا.. وهل سيعرفانني عندما أراهما يا ترى؟؟»

صرخت بقوة، واغتسل وجهها بالدموع والعرق، سحبها زوجها إلى زاوية بعيدة في القاعة، وحاول أن يخفف عنها.

أما أنا فقد كنت أجلس في آخر الصف أحترق مع كل قصة. خضر والرجلان اللذان بجانبه يدونان كل ما يسمعانه، ثم يأخذان البعض على انفراد لمزيد من التفاصيل إذا لزم الأمر.

- «أهلًا بك يا مسلم.. اعذرني، لم أنتبه لقدومك» احتضنني خضر بحرارة بعد إتمام الجلسة.

- «وهل يُعقل أن تنتبه لوجود أحد في خضمِّ كل هذه المآسي يا أخي؟!»

- «سيزول كل هذا يا مسلم، ثِقْ بنصر الله..».

- «ونعم بالله.. يا خضر.. بارك الله فيك وفي جهودك..».

- «هذا عبد الولي أتى إلى هنا قريبًا.. يعمل معنا الآن» أشار إلى الرجل الأكبر سنًّا بين الرجلين، كان وجهه وضاءً، يحمل مسبحة في يده اليمنى، على ثغره ابتسامة صادقة، لقد ارتاحت له نفسي، «أهلًا بك بيننا..» مد يده إليَّ مصافحًا.

- «هذا شيان باحث صيني.. يسعى حول معرفة القضية الأيغورية من أفواه أبنائها..»

تعجبت جدًّا لوجود هذا الأخير، من اسمه لا يبدو مسلمًا كخضر، لكنه مفعم بالإنسانية، ظننته أيغوريًّا لأول وهلة، تفاعله مع القضية بدا واضحًا، لمحته يخفي دموعه، ويدوِّن بألم، ويستمع إلى قصص الحضور بتأثر كبير، ويضغط على شفتيه، مددت يدي لأصافحه بتلقائية «أهلًا بك يا شيان.. هذا رائع.. أقصد ما تقوم به..» لم يصافحني، نظر في وجهي، ثم فتح ذراعيه وعانقني كصديق قديم؛ بادلته حرارته، ثم سرنا أربعتنا؛ لتناول وجبة الغداء في بيت خضر أوروزلي، بعد جولة خاطفة في ربوع ألماتي الساحرة.

* * *

# الفصل الثامن

بدأت البرودة تسيطر على الخارج، الصباح بسماءٍ ضبابية، والأرض مبتلة، الداخل مختلف تمامًا، إضاءة حمراء مشتعلة، الأرائك منتشرة في الصالة الواسعة. في الزاوية الداخلية من صالة الاستقبال يقف عبد الولي يطلب كوبين قهوة وقطع معجنات، بعد لحظات ستُجرى معه مقابلة، يُصاب برعشة خوف كلما تكلم عن قصته مع حلم الروضة، لو كان الأمر بيده؛ لدفن هذه الذكريات، وحطمها كما تحطَّم صرح روضته البهيُّ.

الأحلام التي تُقتل قبل أن تولد أشد ألمًا من تلك التي عاشت ولو لحظة من لحظات الانتصار. حمل الرجل إفطار الصباح، وعاد إلى إحدى الأرائك، فتح باب المصعد، وخرج شيان الذي يبدو عليه الإرهاق والتعب.

- «صباح الخير.. هل انتظرت طويلًا؟»

كان شيان يمشي باتجاه الأريكة، يحمل زجاجة ماء، وشريطًا من أقراص مسكنة.

- «لا.. أتيت للتوِّ.. لا تُفَوِّتْ قهوة هذا الفندق.. إنها لذيذة جدًّا..».

- «إن لم تمانع لنتحدث أثناء الطعام..» كان شيان يتكلم بصعوبة.

- «هل أنت بخير؟.. لا تبدو بصحة جيدة..».

- «لا عليك.. فقط بعض الصداع.. سيزول بعد تناول المسكنات..»

حاول أن يضغط على نفسه، أخذ قطعة من المعجنات، وأكمل:

- «لتبدأ من أصل الحكاية.. الروضة.. الاعتقال.. الخروج.. كل ما صادفك..»

قضم قضمة من طعامه، أتبعها برشفة من القهوة المصبوبة في الكوب الأبيض اللامع.

- «بدأ الأمر عندما أحسست بالخطر على مستقبل الطفل الأيغوري.. الصين قصرت التعليم في المدارس على اللغة الصينية.. تركت الفتات للغة الأيغورية، فقط تُدَرَّسُ بها مواد الأدب.. كنت أعمل في مجال التعليم.. التدريس هو مهنتي المقدسة.. تحققت من القانون في السماح ببناء روضة تقوم على التعليم باللغة الأيغورية.. ظاهر القانون يسمح بذلك.. شحذت همتي.. خططت.. عملت بجد لأحقق هذا الحلم الصغير.. لوت السلطات ذراعي بتهمة ملفقة.. قالوا بأنني ورفاقي جمعنا أموالًا لبناء المشروع بطرق غير مشروعة..»

عقد عبد الولي يديه أمام صدره، ترك طعامه، وأسند ظهره على الأريكة،

- «حُكِمَ علينا بالسجن لمدة عامين.. هنا مربط الفرس.. سأبدأ منذ أول لحظاتي في عالم السجن والاعتقال.. السجن يختلف عن معسكر التأهيل؛ فذلك جهنم وهذا قعرها.. دخلت إلى الزنزانة، وألقيت التحية.. «السلام عليكم»؛ لم يجبني أحد.. رمقني أحد السجناء بنظرة جامدة.. ما كنت لأتفاجأ لولا أن السجان عرفني بأنه سجين سياسي.. لأن السجين السياسي حسب معرفتي من أكثر الذين يعرفون قيمة تحية الإسلام والرد عليها.. كان ذلك السجين هو أحمد قاري الذي أصبح مرشدي بالسجن، وبتعاليمه لاحقًا.. ظل أحمد في وضعية عسكرية حتى خرج السجان.. ثم طأطأ رأسه بأسى.. وقال لي: لقد ارتكبت

خطأ يا أخي.. يمنع أن تحيي أحدًا بتحية الإسلام.. بل تقول بالصينية «baogao».. كان السجان أيغوريًّا؛ وإلا لكنت مت من الضرب..» هززت رأسي بلامبالاة.. ثم نظرت إلى الزنزانة.. كانت غرفة مليئة بالرطوبة والعفن.. لا توجد فيها إلا إنارة ضعيفة.. في وسط الغرفة.. حفرة تخرج منها رائحة قذرة.. عرفت فيما بعد أنها الحمام الذي يُسمح للسجين باستخدامه.. كم شخصًا ضربك قبل وصولك إلى الزنزانة؟؟ فاجأني سؤال أحمد.. قبل أن يسأل أردت أن أدفن الأمر حيث حصل.. كنت أتمنى ألَّا يسأل أحدهم هذا السؤال.. كنت أتمنى ألَّا يعرف أحد ماذا لقيت هناك.. فلم أتمالك نفسي من الشعور بالقهر.. كنت أرضى إذا اكتفوا بالضرب من غير أن يتعدوا ذلك إلى هدر آدميتي.. إلى إذلالي وإهانتي..».

ما أصعب بكاء الرجال! بكى عبد الولي، ولم يتمالك نفسه؛ تدافعت الذكريات في رأسه؛ نظر إليه شيان بتعاطف، لم يجد ما يواسيه به، بلع ريقه بصعوبة حين أكمل عبد الولي قصته:

- «في فترات السجن السابقة.. شخصيًّا لم أكن أتعرض للتعذيب.. ولكنني سمعت وقرأت عن الكثيرين ممن انتفضوا ضد الظلم والطغيان.. كيف تعرضوا للتعذيب والإذلال الشديد في السجون الصينية.. ولكن هذه المرة ذلك اللعين جرَّدني من كل ملابسي، ثم جعلني أنحني مثل الحمار، وبدأ في الضرب على مؤخرتي - أسلوب صيني قديم لتعذيب المحكومين - عضضت على شفتيَّ حتى أدميتها.. كنت قبل ذلك أتصور أساليبهم في التعذيب، ولكن ليس بهذا الأسلوب.. بادرت بستر مؤخرتي بيدي.. بينما بدأ السجانون في ضحك هستيري.. أما أنا فكنت أرتعش من الغضب والقهر.. بالكاد كنت أرى وجوه السجانين.. كانوا يتفوهون بأفحش الشتائم الصينية.. «وسخ»، «غثيان»، كانوا يأمرونني بالقفز أو الانحناء وأنا في تلك الحالة.. وذلك السجان ذو الوجه الشاحب.. أفطس الأنف.. بدأ يدقق وكأنه يبحث عن إبرة بين رجلي.. ثم أمر الآخرين بإزاحة يدي التي أمسكت بها أمامي.. وركلني بركبته عدة مرات.. كان أمرًا فوق كل تصور..».

- «آسف لتذكيرك بهذا الأمر.. عليك مقاومتهم بفضحهم مهما آلمك ذلك.. أعتذر مجددًا..»

لم يعد لشيان طاقة في جمح غضبه وانفعاله، سالت عيناه بسخاء، لم يرفع يده ليمسح دموعه، تركها تسيل علَّها تغسل قلبه اللاهي. بينما هو يسرح ويمرح في مقاهي بكين، هناك ما يقارب مليون شخص يُعَذَّبُ بدون أدنى إنسانية في السجون النازية.

- «لم أشأ أن أحكي لرفاقي ما حدث.. وإذا حكيت لهم ما كنت أتمالك دموعي.. سألت أحمد قاري عن مدته في السجن.. فأخبرني أنه مضى له في السجن سبعة شهور.. «سبعة شهور!» وقع على سمعي كأعداد لا نهاية لها، ولا يمكن عدها.. قبل أن يستكمل حديثه ثانيًا جاء الصراخ من مكبر الصوت الموضوع فوق رؤوسنا: «اخرسوا، وإلا سأخرسكم أنا».

وبعد وقت قليل انطفأ النور، ولكن اشتدت الرائحة الكريهة المنبعثة من الحفرة.. فأكملت حديثي مع رفيقي أحمد قاري متهامسًا.. عرفت أن أحمد قاري من مدينة كاشغر.. وبيته يقع بالقرب من المدرسة الأيغورية التي كنت أنوي افتتاحها.. أُلقي القبض عليه بسبب تدريسه الدين للأطفال في قارغليق - محافظة تابعة لكاشغر، تقع على بعد حوالي ٢٥٠ كيلومترًا - لم يمضِ على زواجه مدة طويلة.. رُزِقَ حديثًا بمولود.. ثم حدثته عن سبب دخولي السجن.. لم يسبق له أن سمع عني، وعما قمت به.. ولذلك لم يبدُ عليه التأثر كثيرًا، ثم قال: «إذَنْ سيفرجون عنك قريبًا».. وفي اليوم التالي لما سمع أنهم ينقلونني إلى

سجن مدينة أورمتشي؛ قال بنبرة جازمة: «سيفرجون عنك».

والسبب في رأيه أن الملابس التي ألبسوني إياها ليست من اللون الأصفر الذي يلبسونه السجناء السياسيين عادة.. فلم أخبره أنني حتى لو لم ألبس ملابس السجناء السياسيين.. فإن الذين ألقوا عليَّ القبض لم يكونوا من الشرطة المحلية.. بل عملاء أمن الدولة من أورمتشي.. وفي اليوم التالي وبعدما صلينا الفجر إشارة، أي بدون حركات، فقط بالإصبع.. بدأ أحمد قاري في قراءة القرآن سرًّا.. أما أنا وبعد انتهائي من الصلاة قرأت كل ما أعرفه من قصار السور، وما إن انتهيت حتى شعرت بانقباض في صدري.. هذه الحجرة من غير نافذة كانت تضيق نفسي.. وكأني غُطيت بكيس على رأسي.. تمنيت لو أني أحفظ القرآن كرفيقي أحمد قاري.. فأخفف عن ضيقي بآياته..».

ارتشف من قهوته التي أصبحت باردة كبرودة قلبه من صقيع الذكريات، تمتم بكلمات الحمد، ونظر إلى عينَيْ شيان بعزم وإصرار مستشعرًا روح المقاومة التي تلتهب بين أضلاعه.

- «بعدما أطلقوا سراحي.. فكرت في أول صاحب لي في السجن، أحمد قاري.. فقد أخبرني أن زوجته وأمه التي تجاوز عمرها الستين كانتا تقيمان معًا.. وعندما سمع أني سأخرج من السجن طلب مني أن أوصل كلامًا لزوجته.. فقال: إن زوجة المسجون إذا طلبت الطلاق؛ فإنهم يسمحون لها بزيارة زوجها.. فهو كان يريد استغلال هذا الأمر حتى يتمكن من لقاء زوجته، ويرى طفله الذي وُلِدَ في غيابه.

في الواقع في كل غرفة من غرف السجن الذي أودعوني فيه.. كانت هناك لوحات معلقة.. مكتوب عليها ما يسمى بـ«حقوق السجين» باللغة الأيغورية والصينية وبخط كبير.. وكان لزامًا على كل سجين حفظها.. ومن ضمن هذه الحقوق حق الزيارة للأهل.. ولكنني لم أَرَ أي شيء واقعًا عمليًّا من تلك الحقوق.. ولسوء حظي وعلى عكس ما توقع أحمد قاري بقيت في السجن مدة.. أما هو فربما كان محظوظًا، واستطاعت زوجته زيارته.. على كلٍّ عزمت على زيارة والدته وإبلاغ كلامه لزوجته بغض النظر عما حدث بعد الإفراج عني.

وصلت لقرية أحمد قاري، ووجدت الجميع هناك حاضرًا في مجلس القرية للاجتماع السياسي.. أول ما وقفت أمام الباب جاءني شخص يحمل سلاحًا.. كان عليَّ أن أخبره سبب المجيء، وإظهار بطاقتي الشخصية له.. ولكن تعريفي بنفسي وسبب مجيئي كانت مخاطرة كبيرة.. فإن أعطيت له بطاقتي الشخصية سيضعها في الجهاز، ويكتشف أنني سجين سابق، وقد يحبسونني مرة أخرى.

أعرف هذا لأنني بعد عشرة أيام من خروجي من السجن تعرضت لموقف مشابه، وحُبست لعدة أيام، وتعرضت للتعذيب.. فكذبت عليه، وقلت: إنني مسؤول حكومي للقرية المجاورة.. فأخبرني أن عليَّ تسليم البطاقة الشخصية من أجل الدخول للمجلس.. فتظاهرت بأنني منتظر لشخص أمام الباب.. وبداخل المجلس كان الناس مشغولين برقصة «التفاح» الجماعي - رقصة صينية غنائية تؤدى بشكل جماعي، وهي إحدى أساليب الحزب الشيوعي لغسيل الدماغ - وبعد انتهائها بدأوا في أداء الأغاني بشكل فردي.. وعرفت من أحد أعضاء الحراسة الذي يمسك هراوة كبيرة أن الذين يغنون بشكل فردي هم أعضاء أسر تحت المراقبة، يُختبر ولاؤهم بهذه الطريقة..

فسألته إن كان من بينهم شخص اسمه أحمد قاري، فألقى علي نظرة شاملة، ثم أشار إلى امرأة في الداخل على أنها أمه.. فرأيت امرأة مسنة لابسة ملابس ممثلي المسرحية الصينية، ووضعت مكياجًا مكثفًا.. ووردة صناعية فوق أذنها، وكانت واقفة ترتعش.. عاجزة عن الكلام.. ثم أمسكت بيدها المايكروفون، وقالت بصوت متقطع: سأغني لكم أغنية «الزمن الحر» - أغنية صينية دعائية للحزب الشيوعي - لم يصفق لها سوى عدة مسؤولين من الحزب الشيوعي.. ثم تمتمت أم أحمد قاري عدة مرات لبدء الأغنية، كأنها لم تستطع.. ثم فجأة بدأت في لطم نفسها باكية صائحة: «يا ويح نفسي، ليتني متُّ قبل هذا، ليتني متُّ قبل هذا، ليتني لم آتِ لهذه الحياة، ليتني لم أُولد».

بالكاد تمالكت دموعي، وعضضت على شفتي، ونظرت إلى شرطي يمشي غير بعيد مني ماسكًا سلاحه.. لو خطوت ناحيته لأخذ سلاحه لكان واضحًا أنه سيطلق عليَّ النار قبل أن أصل إليه.. على كل حال لم يبقَ في حياتي إلا أن أخطو هذه الخطوة.. لكنني فشلت.. لم تخرج المرأة إلا وهي في حالة إغماء.. انسحبت بهدوء.. أجرُّ ذيل الفشل والقهر معًا..» ارتشف قليلا من الماء، وبعد صمت لمدة من الوقت أكمل السرد:

«ثم بعد انتقالي لسجن (تاري تاغ).. تذكرت تنبيه أحمد قاري، دخلت للحجرة قائلًا: «baogao» ولكني لم أسلم من الضرب؛ لأنني نسيت وضع يدي على رأسي.

ما إن قال الصيني الواقف على باب الحجرة: «أمسك رأسك» جاء سجين أيغوري، وبدأ بضربي..».

- «إِذَنْ أُدخلت إلى السجن مرة أخرى؟؟» سأل شيان. كان يُدَوِّنُ بعض المعلومات على ورقة أمامه.

- «نعم.. أتعلم؟.. في عمري البالغ أربعين عامًا.. لم أعرف أن هناك في لغتنا ألفاظًا بمثل هذه الحقارة والبذاءة.. لم أفهم لماذا يضربني ويهينني ويسبني بهذه البذاءة.. ضرب السجان في السجن السابق بكاشغر كان مفهومًا؛ لأن الضرب وظيفته.. ربما رآني «انفصاليًّا» أو «إرهابيًّا» فضربني وأهانني.. ولكن ما الذي فعلته لهذا السجين الأيغوري؟

والأعجب من كل ذلك.. هذا المعتوه كان يخاطبني بالأيغورية، ويطلب مني الإجابة بالصينية..» ضحك عبدالوالي بسخرية، ضحك وخلف اهتزاز جسده هشاشة في عمق روحه، «وأحيانا يغضب لعدم إجابتي بالأيغورية.. وفي هذا السجن الجديد كانت دورات المياه منفصلة.. إلا أنها حُولت لسلخانة لتعذيب السجناء.. شهدت على وقائع تعليق السجناء وضربهم.

وبعد مُضِيِّ ساعة ناداني صيني كان يرقد أمام الباب.. ذهبت إليه قائلًا: «baogao» كما لقنوني، ووقفت رافعًا يدي؛ فسألني عن سيرتي وتعجب؛ لأنه لم يَرَ في حياته سجينًا سياسيًّا صاحب تعليم عالٍ مثلي.. وعرف عن نفسه بـ«يانج يونج» وكان رئيسنا في الحجرة.. وهذه الحجرة جمعت ١٧ سجينًا، أربعة صينيين، واثنين من مسلمي الهوي، وواحدًا قازاق، والبقية من الأيغور.. الصينيون دخلوا السجن بجرائم النصب والرشوة.. وأما الهوي فجرائمهم الإتجار بالمخدرات.

والأيغور إما تعاطي المخدرات -ومعظمها تهم ملفقة-وإما سجناء الرأي والسياسة.. وفي السجن توجد منصة خشبية مخصصة للنوم.. الناحية الأبعد عن دورة المياه كانت مخصصة للصينيين.. يليها مكان الهوي، ويليهم فرهاد الذي ضربني.. ويليه بقيتنا، نحن - الأيغوريين - أقرب لدورة المياه.. عندما يحين وقت النوم.. يقوم أربعة من الأيغور بالتدليك للصينيين

الأربع حتى يناموا.. هؤلاء الأربعة الصينيون والاثنان من الهوي حجزوا لأنفسهم أريح وأوسع الأماكن.. والبقية ننام على الجنب في مكان ضيق متلاصقين.. والسجناء السياسيون وأمثالي في أول أيامهم كانوا مضطرين للنوم على الأرض.. وهي غالبًا ما تكون قرب دورة المياه.. حتى الأكل يجب أن نأكله قرب دورة المياه.. وفي الليل يقوم اثنان بالحراسة متبادلَيْن الأدوار في كل ساعتين.. والذي يقوم بالليل في الحراسة يكون أيضًا من الأيغور، ومن السجناء السياسيين.

النقود المرسلة من أهل السجناء يتم إيداعها في الكروت المخصصة لشراء الطعام.. يمكن شراء بعض الأطعمة، والبيض، والشوكولاتة، واللبن، وبعض أنواع الفواكه والملابس الداخلية.. ولكن يتحكم فيها الصيني رئيس الغرفة.. وفي السجن يُعطى السجين الأرز بالماء المغلي صباحًا.. والفلفل الأحمر بالماء المغلي الذي نسميه شوربة العذاب ظهرًا ومساءً.. وأحيانًا قليلة يمكن طلب أطعمة بالخضروات والزيت.. طبعًا يطلبها رئيس الغرفة الصيني على حساب السجناء الأيغور ونقودهم.. فالصيني يفطر على اللبن والشوكولاتة والمربى، ويشتري السيجار من السجانين.. والخادم الأيغوري يتوسل لسيده الصيني؛ حتى يحظى بوجبة جيدة ولو لمرة واحدة.

الأيغوري كان يأتيه من أهله نقود أكثر.. ولكنه يكون آخر شخص يستفيد منها.. وأنا عرفت كم دخل من النقود في كرتي.. وكم أنفقت منها بعدما انتقلت إلى سجن آخر.. إن حياة الأيغوري في الشارع هي حياته في السجن.. إن أي وطن مقهور بلا حقوق.. يكون أفراده بلا أية قيمة ولا أية حقوق.. لقد بقيت في سجن أورمتشي ثلاث سنوات.. في كل سجن يكون المسؤول الأول صينيًّا والنائب أيغوريًّا.. وفي كل حجرة السيد والآمر هو السجين الصيني والمنفذ أيغوري.

الصينيون في السجن شجعان.. كلمتهم مسموعة.. والأيغور كلمتهم مردودة وجبناء وخائفون.. السجين الأيغوري يضرب أخاه الأيغوري أكثر مما يضربه الصيني إرضاء لسيده الصيني؛ لأنه لا يعتبر إظهار ولائه بضرب الصيني.. بل بضرب أخيه الأيغوري.. فهو حينئذٍ يكون مخلصًا وفيًّا لسيده.. يثبت أنه غير عنصري.. صيني أكثر من الصينيين.. وإذا كان النائب في الغرفة صينيًّا أيضًا.. فإن لم يكن له عداوة للأيغور لا يضربهم بقسوة؛ لأنه ليس بحاجة لإثبات ولائه وإخلاصه لسيده.

لقد أفصح عن هذا الأمر فرهاد.. النائب الذي ضربني قائلًا: «اسمع، أنا أيضًا بلا حيلة، ليس من السهل أن أحافظ على مكانتي، فإن لم أضربك أكثر من ضربي للصيني، كبير الحجرة «لاودا» سيظن أني أميل للأيغوري أكثر»

هكذا هي حياة الأيغوري.. فهو يتعرض للإهانة من الشرطي والسجين الصيني بالرغم من جرائمه.. ثم يتعرض للضرب والإهانة من أخيه الأيغوري ضرب الولاء والإخلاص.. هذه هي الحكاية باختصار..».

تَنَهَّد عبد الولي، ثم أخذ أمتعته، وخرج من الفندق، خرج راكضًا كأنه لا يريد من شيان أن ينظر إلى وجهه وهو يكتوي بسياط الذكرى؛ السجن لا يُخرج أحدًا كما دخله.

- «حق الضحية المسلوب.. ووجه الجاني المدهون بالعسل.. كل شيء يتضح» كان شيان يحادث نفسه، ليلك لم تكذبه القول إِذَنْ، لكن أباه كان يفعل. كازاخستان كانت جوابًا شافيًا للكثير من الأسئلة، هناك قصص لأشخاص مختلفين في مكان آخر، قرر شيان أن يكون آخر محطات رحلته.

الشمس تودع السماء، تخفت شيئًا فشيئًا، تجر حرارتها ليأخذ البرد موقعه. خرج شيان من الفندق قبل غروب الشمس

بلحظات؛ أراد أن يستمتع بمنظر طبيعي جميل يخفف عنه وطأة الأحداث المنهالة عليه كلدغ العقارب.

من جو ألماتي الساحر بحث عن دواء لأرقه، سار بخطوات متقاربة صغيرة؛ حتى وصل إلى مسجد كبير ذي مبنى كازاخي عتيق، يجمع المسجد بين تقدم الحاضر وأصالة الماضي. لأول مرة يرى شيان عددًا كبيرًا من الناس يقومون بأداء طقوس دينية دفعة واحدة. هذا المسجد صُمِّمَ ليستوعب ٧٠٠٠ مُصلٍّ، تعلوه قبة زرقاء كأنها قطعة من السماء، يدعونه بالمسجد المركزي.

كان للأذان وقع مختلف على قلب شيان، سبح في مقاماته بانسجام، ترتيل الآيات في الصلاة، «الله أكبر» التي تُرَدَّدُ بعد كل ركن؛ لقد أسرت هذه الأشياء روحه، ظَلَّ يحدق في الخارجين من المسجد، يرى الطمأنينة في وجوههم، هذا الطهر يغزو قلبه بهدوء.

تردد كثيرًا قبل دخوله للمسجد، لكنه عزم أمره، خلع نعليه كما يفعل المصلون، دفع برجليه حتى وصل إلى منتصف المسجد الفارغ نسبيًّا، اقترب من المحراب في واجهة المسجد، تهالكت قواه، جثم على ركبتيه وطأطأ رأسه، شعر بالانكسار الجابر، بالضعف القوي، بالوهن المتين، انسال الطهر من عينيه دموعًا رقراقة، ظل هكذا فتره. اهتز هاتفه المحمول في جيبه؛ كفكف دموعه، وخرج من المسجد.

- «أهلًا.. شيان كيف حالك؟؟»

- «ليلك..» قال بدهشة، لم يكن رقمًا محفوظًا.

- «هل هناك أمر ما ؟؟ لِمَ صوتك واهٍ؟؟» تساءلت بقلق.

-«إنها الكوابيس يا ليلك.. أصبحت لا أستطيع النوم.. يبدو أن رحلتي هَيَّجَتْ مشاعري أكثر.. لا أنفك عن رؤية الكوابيس في أول لحظات نومي.. أحيانًا حتى في يقظتي.. أسمع صوت بكاء.. ضرب.. صورة والدي.. أحلم بأني أقع.. شجرة كبيرة.. ظلام مع صدى صراخ.. لقد تعبت.. كلما توغلت في سماع القصص الأليمة؛ تزداد كوابيسي، ويزداد شعوري بالتيه.. أشعر بظلمة كبيرة في عقلي..» سرد شيان مخاوفه لليلك؛ في حضرتها يشعر بالأمان، كان يروي لها عن كوابيسه المزعجة، لم تكن كثيرة في الماضي، لكن الأمر يتطور مع الوقت.

-«أعلم ذلك..» ردة فعلها أثارت استغرابه، لم تطمئنه كعادتها، لم تخبره أنه مجرد ضغط، ذكريات أليمة عن أبيه غريب الأطوار ستزول مع الوقت، «أريد أن ألتقيك قريبًا..» نبرتها جادة.

- «سأذهب غدًا إلى تركيا.. هناك تنسيق بين منظمة أتاجورت في كازاخستان ومنظمات أخرى في قيصري.. للعمل بشكل أكثر تنظيمًا وجدية.. سيذهبون بوثائق لقصص أشخاص..».

- «حسنًا.. حسنًا..» قاطعته قبل أن يكمل، ثم أنهت الاتصال.. شعر شيان بأنه قد استرسل كثيرًا.

تحت ظلمة الليل والإنارة المتدلية من أعمدة الكهرباء، سار شيان في العاصمة التجارية الكازاخية، يجمع أطراف الأحجية، يقلب المعادلة في رأسه، يرتب الأمور، يتسلسل بكل الأحداث التي عاشها، يتذكر المقالات في الصحف، يسترجع كتب التاريخ، كل الأمور التي لها علاقة بالقضية الأيغورية.

الصين بدت قبيحة جدًّا في عينَيْ شيان، شعر بأنها تشبه والده كثيرًا. السيطرة، والظلم، وسرقة الحقيقة، لقد سرق منه حقيقة والدته التي لا يعرف من هي أو كيف ماتت.

وقف أخيرًا أمام المستشفى الكبير في المدينة، ينتظره خضر أوروزلي ومسلم هنا، لديهم فارٌّ من المعسكرات التأهيلية، صحته غير جيدة.اتخذ شيان السلالم صعودًا حتى وصل للغرفة المتفق عليها (١٨).

-«تفضل يا شيان.. ادخل..» قال خضر حين لمح شيان أمام الباب.

- «لا بأس..» قال شيان للرجل النائم على السرير. كان وجهه ملفوفًا بالضمادات البيضاء.

-«المهم أن يُشفى قلبه..» قال مسلم الجالس أمام المريض، يشد على يده، ويطبطب عليها برفق: «لقد أجرى عملية تجميل لوجهه.. لقد شوى الأوغاد وجهه بالمياسم حتى فقد ملامحه.. ظنوا بأنه قد جُنَّ؛ لذا حاولوا التخلص منه؛ قذفوه بالعراء.. لكنه نجا.. والحمد لله..».

-«ما اسمه؟؟..» سأل شيان وهو يأخذ كرسي ليجلس قبالة رأس الرجل الملقى على السرير.

-«ستوق..» بادر خضر بالإجابة.

- «لم أسمع بهذا الاسم..».

- «ستوق بغراخان.. كان قائدًا كبيرًا.. عندما أتى المسلمون إلى تركستان وبلاد ما وراء النهر.. لم يأتوا بالسيف، بل بالمعاملة الحسنة.. انتشر الإسلام ولكن ببطء.. أما ستوق بغراخان عندما يقرر فإنه يحدث قلبة تاريخية عظيمة.. القائد الصالح يا شيان يتبعه شعبه.. يناصرونه ويؤازرونه.. عندما أسلم ستوق بغراخان في عام ٢٣هـ أسلمت ٢٠٠ ألف عائلة في تلك المنطقة؛ مما يعني قرابة المليون شخص..».

-هذا عظيم! أن يدخل هذا العدد من الأشخاص في دين ما دفعة واحدة.. هذا يعني أنه يتصف بالحقيقة بما يكفي ليسحر به عقول الناس..».

-«إنها الفطرة يا أخي..» قال مسلم بابتسامة دخلت إلى قلب شيان، نبض قلب شيان بقوة، أسرته كلمة «يا أخي» لأول مرة يسمعها تُقال له، هو لا يعرف أخًا أو أختًا، «أخي» رَدَّدَها في سره بشيء من اللذة.

-الضجيج مرتفع، الأيدي تتحسس الجسد المتهالك، مسلم يضغط على اليد اليسرى برفق، خضر يقف على حافة السرير يراقب حركة العينين، الأكسجين موصول بالرئة المختنقة، صوت صفير الأجهزة، ترصد نبضات القلب.

- «لقد تَعَرَّضَ لصدمة..» قال الطبيب بعد أن خرج من الغرفة المزدحمة بالأطباء والممرضين.

-«هل هذا خطير؟؟..» سأل مسلم بقلق.

- «على الأرجح سيستعيد نفسه بعد ساعات قليلة..».

ركض مسلم باتجاه شيان المنهك، نظر إلى يديه المرتجفتين، تعرق جبينه، شعر بالعطف تجاهه، آلمته نظرة الوهن في

عينيه، لقد جحظت عيناه كثيرًا، وغلفهما السواد. لم يكن كذلك عندما رآه أول مره، كان نشيطًا يُدَوِّنُ القصص، يستفسر من الناس، ويريد أن يدخل إلى قلوبهم، ويخفف عنهم.

-«لا تقلق.. سأدعو الله كي يشفيك.. ستتم عملك على أكمل وجه.. وستكون صحتك ممتازة..» كان مسلم يمرر أنامله على وجه شيان الدافئ بفعل الحمى، أنامل مسلم الباردة أطفأت شيئًا من لهيب شيان.

* * *

# الفصل التاسع

لَفَّتْ حجابها باعتزاز، ولبست المعطف الطويل الذي يشبه لون السماء، ظلت تتأمل نفسها في المرآة، تذكرت آخر مرة وضعت فيه الحجاب على رأسها، كانت صغيرة جدًّا، عندما كانت تجد طريقًا لاختلاسه من دولاب أختيها، كانت ترتديه بطريقة غير منتظمة، تنزل إلى الصالة، وتتجمع حولها الأعين، ثم تسمع عبارات الثناء من أمها «لقد كبرتِ.. ما شاء الله أصبحتِ جميلة..»، ثم تفرُّ من عقوبة أختيها؛ لأنها عبثت في الدواليب الخاصة بهما، تركض إلى الشارع وهي تثبت الحجاب بيديها؛ حتى تصل إلى الشجرة الكبيرة، تجد إسماعيل يحمل عصاه المحددة، ويهزها كالسيف في وجه الشجرة

- «ماذا تفعل؟؟» تسأله بفضول:

- «أتدرب على القتال.. لا أريد أن يأتي الجنود ويأخذوا أمي.. عبد الله منشغل كثيرًا.. قال لي بأن أحميها في غيابه.. أريد أداء مهمتي على أكمل وجه..»

كان يدهشها إسماعيل بأجوبته دائمًا. تشعر بأنه رجل كبير، بينما هي تفكر في أمور طفولية جدًّا

- «كيف أبدو؟» سألت بيأس؛ فهو لم ينظر إليها، ظلت عيناه مثبتتين على جذع الشجرة الصلب

- «تشبهين تركستان..»

- «كيف؟؟» قالت بحنق.

- «لا أعلم.. هذا التشبيه يناسبك جدًّا.. هل تريدين أن تلعبي بالأرجوحة؟..» ثم أخذ يؤرجحها على الإطار الكبير، حينها لعبت كثيرًا؛ كانت تستمتع جدًّا بهذه الأرجوحة، تشتم رائحة خبز خالتها التي تخرج من نافذة المطبخ. نظرة في مرآة قد تُحيي آلاف القصص.

- «لقد تأخرتِ.. السيدة نور الله تنتظرنا في المهرجان..»

دخلت خاتون على عجل، تلفُّ حجابها بشكل كامل، تتوشح بشال سماوي كلون معطف ليلك، كأنهما أرادتا أن ترتديا ألوان علم وطنهما، وأن تكونا قطعًا من السماء كما هي تركستان.

- «أنا قادمة..» أجابت ليلك بحماس.

أناشيد وطنية أيغورية تصدح في ساحة كبيرة، الكثير من البشر يدخلون من بوابتها الواسعة، ملصقات تنتشر في الجدران، ومكبرات الصوت تنتشر في الأرجاء، وأطفال صغار يرسمون على وجوههم العلم التركستاني، بالأبيض والسماوي يلونون وجوههم، ويحملون بالونات سماوية كذلك، رايات بلون النقاء ولون الحياة ترفرف هنا وهناك.

على الطاولات الممتدة ترتصف الأطباق المليئة بالطعام البخاري، أطباق المنتو، واللغمن، وغيرها من الأطباق. هناك أطباق مخصصة للحلويات.

في القاعة الداخلية يوجد بازار تُباع فيه بعض المصنوعات التقليدية الملابس المطرزة يدويًّا، والقبعات المصنوعة بأيدي أيغورية المعلقة في الجهة اليمنى من القاعة، تُعرض بعض الصور ومقاطع الفيديو التي تنقل صوت القضية، الحضور من جنسيات مختلفة متفاعلة مع القضية الأيغورية؛ فمن لا يعلم الحقيقة يعلمها من أفواه جوعى الوطن، يقف خضر أوروزلي يتحدث مع رئيس المبادرة التعريفية الأستاذ حميد جوكترك.

- «هل تقومون بهذا بشكل مستمر؟..» سأل خضر.

- «نعم.. نقيم العديد من المهرجانات التعريفية بالقضية الأيغورية.. يتفاعل الناس بشكل كبير.. نكتشف يوميًّا أن هناك شريحة كبيرة من الناس لا يعرفون، أو قُلْ: لم يسمعوا حتى.. بتركستان وأهلها والمعاناة الممتدة من عشرات السنين.. لكنهم عندما يعملون؛ يُبدون تأثرًا ملحوظًا.. نحن هنا نصنع الوعي.. يا سيد خضر..».

- «الوعي أول الأسلحة..» أضاف مسلم الواقف بجانب خضر.

- «القضية الأيغورية قضية.. إنسانية.. وطنية.. دينية.. قضية أكبر من أن تُطوى بلا مبالاة..» بادر شيان بالمداخلة، كان يحمل أوراقه، ويُدَوِّنُ بعض ما يقوله الأستاذ حميد.

- «هو ذاك..» قال حميد. تلفت قليلًا، ونظر لأحد الشبان من اللجنة التعريفية الثقافية، يلتف حوله مجموعة من الناس، يُحَدِّثُهم عن العادات الأيغورية:

- «أُخرج لكم من الذاكرة الأيغورية.. بعض قصص التراث في بلادنا، ومنها مراسم الزواج.. وهذه المناسبة السعيدة يسمع بها القاصي والداني؛ فبين شعب الأيغور لحمة عجيبة.. يفرحون معًا، ويحزنون معًا كالجسد الواحد.. مراسم الزواج تبدأ بتوجه إمام جامع الحي مع المصلين بعد صلاة الفجر؛ لتناول الطعام في بيت العروس.. فيتناول الرجال طعامهم بالآلاف، ثم ينصرفون.. لتحضر النسوة، ويتناولن طعامهن.. ثم يتوجه العريس بعد ذلك مع أصدقائه إلى بيت العروس بعد صلاة الظهر؛ فتكرمهم العائلة بالطعام على وقع الموسيقى الأيغورية.. ويمضي العريس عدة ساعات في بيت نُسبائه، ويغادر صَحْبَه؛ لتحل مكانهم النساء مرة أخرى.. ثم يأتي الرجال مجددًا لزفة العروسين إلى بيت الزوجية بالتكبيرات والتهليل..».

- «هذا جميل!..» قال شاب تركي.

- «لقد أثرت مشاعرنا يا بني.. تذكرت يوم زفافي.. نعم، كنا نفعل هكذا في الماضي.. الآن قد تغير الوضع.. يحبذون الأعراس المسائية..» قال رجل مُسِنٌّ يتكئ على عصاه.

تُسَلِّمُ النسوة على السيدة نور الله. في الغربة يشعر الأيغوريون أنهم عائلة واحدة كبيرة، السيدة نور الله تقوم بجمعات مستمرة للسيدات، يقمن من خلالها بحملاتهنَ التعريفية -كهذا المهرجان- يتكلمنَ حول المرأة الأيغورية، وما تعانيه في الداخل التركستاني، وعن آلامها المستمرة، ومخاوفها.

هؤلاء النسوة جعلن من أنفسهن أفواهًا لأمهات المعتقلين، ولأمهات الشهداء، ولزوجات المطاردين. هنا يتكلمنَ بكلماتهن، يعبرن عن مشاعرهن، إن كانت السيدة الأيغورية في الداخل هي العين التي تدمع؛ فالسيدة الأيغورية في المهجر

هي الكف التي تمسح.

تقدمت خاتون بمشيتها الرزينة؛ لتسلم على السيدة نور الله، تلحقها ليلك بخجل؛ فتعانقهن السيدة بحرارة. تعتبر السيدة نور الله أن الشباب هم وقود التحرير؛ فتهتم بهم وتسندهم دائمًا.

- «نشكركِ على الاستضافة..»

قالت خاتون وكفها لا تزال ممسكة بكف السيدة نور الله.

- «لأول مرة في حياتي أشعر بالحرية» كانت على وشك أن تبكي، كان قلبها يرقص مع الكلمات والألحان الأيغورية، لقد سمعتها قبل اثنتي عشرة سنة من الآن.

- «هذا واجبنا يا خاتون.. نريد أن نستفيد من علمك الواسع بالأدب الأيغوري.. نحتاج أن ننقله للناس عبر المتعمقين فيه..» ثم التفتت إلى ليلك

- «وأنتِ يا جميلة لا بد أن تخدمي القضية بتخصصك في الإعلام.. الإعلام هو صانع الوعي.. ما وصلنا إلى هذا الحال إلا من قلة الوعي.. وعدم تسليط الضوء على قضايانا..».

- «أنا أسعى لذلك.. أتخذ من تخصصي سلاحًا لأناضل به من أجل موطني.. مهما كان الثمن..».

- «الكلمة التي تُروى بالعرق والدم.. وحدها التي تزهر كشجرة طيبة تؤتي أُكُلها كل حين.. لا تنسي ذلك..» أومأت الفتاة برأسها، ثم ضغطت بشدة على حقيبتها.

لقد مسَّت السيدة جرحها، إنها تعمل ليلَ نهارَ لتصل كلمتها، ليكون مشروعها شوكة في حلق محتل أرضها مهما كلفها ذلك من ثمن، قلبت نظرها بين الحضور «لا بد أنه هنا..» بين الجموع الكثيرة وجدت شيان يستمع للسيد حميد بتمعن، وبدون وعي ركضت نحوه.

- «لقد وجدتك أخيرًا..» صوتها مليء بالحماسة.

- «ليلك!!» قال بترحيب كبير ووجه طلق. لم يستغرب وجودها كثيرًا، فقد بَلَّغَها من قبل بأنه سيكون هنا، فأصرت على المجيء، حاول منعها لكنها أبت. قالت:

- «الأمر مهم جدًّا، ولا يحتمل الانتظار».

- «أنت ترتدين الحجاب..» كان يبتسم وهو ينظر إليها، لم يألفها هكذا، أين شعرها البني المنساب كالقهوة؟؟ كان أمرًا غير متوقعٍ بالنسبة له.

- «هناك أمر أهم من هذا، لديَّ الكثير لأقوله لك..» تكلمت بجدية، نظرت في الأرجاء محاولة إيجاد مكان شاغر، لم تجد؛

- «شيان لا بد أن نذهب إلى مكانٍ ما.. سأريك شيئًا..».

- «حسنًا، في باحة الفندق الذي أنزل فيه.. أنا أيضًا أحمل الكثير.. لم أتصور يومًا بأن أهتم بقضة ما إلى هذا الحد..» كان يحدثها وهما يمشيان بسرعة خارج المكان «أشعر بأنني حيٌّ ليلك.. أنا على قيد الحياة.. أصبحت أملك إجابات أسألتكِ لي.. لِمَ تعيش؟.. تلك الأسئلة التي حرقتِ فؤادي بها، جعلتِ مني لا شيء يومها.. أيضًا وجدت معنى كلام خاتون في منزلكم في ذلك اليوم.. لا بد أن تلجأ لقوة فوق بشرية.. أنا أجد القطع التي تنقصني.. الصورة بدأت تكتمل.. وجدت القليل مني، والكثير من تركستان في رحلتي هذه..».

- «هذا جيد.. أنت تبلي حسنًا..».

* * *

بركة صغيرة فيها بطة تطفو فوق الماء كملكة، ومن خلفها صغارها، بجانب البركة الكثير من الطاولات الدائرية، الأشجار تنتشر في باحة الفندق بشكل كبير، تشعر وكأنك في غابة مصغرة، رائحة الشواء تزيد من هذا الشعور، الشمس الدافئة تعدل جو الشتاء البارد. تجلس ليلك على مقعد بجانب البركة، تتأمل البطة وصغارها، مقابلها شيان يُرَتِّبُ أوراقه، يريد أن يُري ليلك ما وجده، وما أنجزه في رحلته الطويلة.

- «ليلك، انظري.. هذه بعض القصص دَوَّنْتُها بشكل مختصر..» تناولت منه بعض الأوراق.

- «١- فرَّ عزيز منذ حوالي عام إلى تركيا بعد تلقيه مكالمة هاتفية من مركز شرطة محلي بضرورة تسليم نفسه فورًا، وقال في مقابلة مع «أسوشيتد برس»: إن نصف جيرانه زُجَّ بهم في مراكز التثقيف، أو السجون، وصل به الإحباط واليأس إلى أن تمنى لو أنه لم يولد من أبناء الأيغور، ولا في هذا الإقليم.

٢- عادل دليلكان الذي يعيش في ألماتي، عاصمة كازاخستان، قال: إن ابنه عندما كان بعمر خمس سنوات أُجبر على الذهاب إلى مدرسة تديرها الحكومة من الاثنين إلى الجمعة، بالرغم من أن لديه أقارب يمكنه البقاء معهم. تم نقل الابن إلى مدرسة داخلية بعمر تسع سنوات، وكان يعود للأسرة خلال عطلات نهاية الأسبوع، والأعياد فقط.

٣- ديلنور (٣٥ عامًا) طالبة تعيش في إسطنبول، قالت: إن المسؤولين يزورون حضانة طفلتها بانتظام، ويسألون الأطفال عما إذا كان آباؤهم يقرأون نصوصًا دينية في المنزل، أو يقومون بأية أنشطة دينية. أما عن تبعات تلك الأسئلة، تقول ديلنور: إن السلطات الصينية اعتقلت رجلًا؛ لأن حفيده أبلغ المعلمين أن جده زار مكة.

٤- عبد الرحيم أمين (٤٢ عامًا) الذي يعيش في إسطنبول منذ عام ٢٠١٤م لديه أربعة أبناء، اثنان منهم ماتا في حادث، ولا يعرف أين يعيش الآخران، لديه أيضًا ابنة عمرها ١٤ عامًا أُجبرت على الالتحاق بمدرسة ثنائية اللغة في ٢٠١٥م. في المدرسة التي زارها مراسلو الوكالة مكتوب على أحد الجدران: «يُرجى التحدث بلغة الماندرين عند دخول ساحة المدرسة، لا يرغب الرجل في الاحتفاظ بصور ابنته التي ترسلها إليه؛ حتى لا يتألم أكثر. وقال: «نحن نموت كل يوم.. لا يمكننا رؤية أطفالنا، لا يمكننا رؤية والدينا، هذا تعذيب أبدي».

- «هذا مؤلم جدًّا..» قالت ليلك بأسى؛ تنهدت، وأخرجت من جوفها تنهيدة عميقة، تكاد تخرج ملطخة بالدم «شيان..»

قالت بصوت خافت. رَكَّزَ الشاب فيما تقول بعد أن كان منشغلًا بأوراقه، يريد أن يريها أكبر قدر ممكن من المعلومات المرصودة في ملفاته «وصلتك رسالة من والدة جيو..».

اتسعت حدقتا عينيه فجأة، ناولته ليلك ظرفًا ورقيًّا، فتحه على عجل، مَزَّقَه من الأعلى، تصرَّف بانفعال، ظن بأن جيو قد أصابه مكروه، ثم أخرج أوراقًا مطويةً قرأها بشكل متتالٍ.

- «أهلًا.. شيان.. سأقول لك من أنا.. ربما لا تعرفني بأني والدة جيو.. لأنك قد أحببتني كالخالة كيلا التي عملت في منزل والدك.. لقد أحببتك كابني تمامًا، ربما قضيت معك وقتًا في طفولتك أكثر من طفلي الذي أنجبته (جيو).. لقد عانيت كثيرًا في صغرك.. لقد كان الجنيرال فظًّا غليظًا معك.. أتذكر تلك الليالي التي كنت تنام فيها دون عشاء كعقاب.. أتذكره يشرب حد الثمل، ثم يستعرض قوته على جسدك الغض الصغير.. لقد بكيتُ كثيرًا من أجلك..

شيان.. اعلم أني لستُ لطيفة للحد الذي تظن.. إن أكبر ذنب يرتكبه الإنسان هو الكذب.. لقد كذبتك القول.. حين كنت تسألني عن والدتك كيف كانت؟ هل كانت جميلة؟ كيف ماتت؟.. كنت أكذب عليك حتى لا تحزن.. أظنك كنت تشعر بذلك.. كنت ذكيًّا للحد الذي لم تصدق فيه كلامي الزائف.. كنت مضطرة لهذا، صَدِّقْني..

لقد أصابني المرض.. وأظن بأني سأموت قريبًا.. الذي تعرفه عني أنه قد جاء بي الجنيرال لأعمل في منزله.. أخدمه وأخدمك أيضًا.. كنت أظن أن حاجتك للطعام والشراب هي كل شيء، لكن حاجتك للحقيقة التي أخفيتها عنك كانت أشد؛ فسامحني..

لكن دعني أنطق بها الآن.. الحقيقة كالتالي.. كنت امرأة فقيرة؛ فوجدت عملًا في معسكر صيني.. أطهو الطعام وأنظف المكان.. كان الجنيرال يومها رئيس حملة في إقليم شنجيانج.. كانت الحملة عبارة عن أخذ بعض من أطفال الأيغور من داخل الإقليم.. بعد أخذهم كانوا يأتون بهم إلى مدن صينية؛ ليعيشوا في دور الأيتام.. عندها كنت في سن الرابعة.. لقد تم أخذك من عائلتك الأيغورية من مدينة كاشغر..

لم أكن أعلم هذا في بادئ الأمر، كان الجنيرال يخفي عني قصتك الحقيقية.. علمت منه أن أمك تخلت عنك وذهبت.. لكن في مرة من المرات.. كنت تبكي بحرقة، أردت أن تعلم أين هي أمك.. قلتَ لي حينها: هل يمكن أنها تخلت عني وذهبت!!.. استثارت كلماتك أمومتي.. أنا تركتُ جيو الصغير الذي يصغرك بأشهر فقط في قريتنا النائية؛ لأنني لا أملك المال الذي يقتات منه.. تركته باحثة عن عمل.. لماذا قد تتركك أمك؟.. لا يوجد أم تترك طفلها وتذهب، هذا ما أخبرتني به أمومتي..

ذهبتُ إلى المجندات اللاتي عملن مع والدك، أو الجنيرال بالأصح.. فروت لي إحداهن التالي، والقصة التي أسررتها في صدري؛ حتى لا أحزنك.. حتى إن الجنيرال عندما علم عن بحثي لأصل الحكاية أعادني إلى قريتي.. عندما كبر جيو أرسلته ليدرس معك.. كنت أعلم أخبارك منه.. عندما مرضت وشعرت بأن موتي قد اقترب؛ جعلته يتظاهر بالمرض، أو استغللت نزلة البرد تلك.. فاستدعيته لأسلمه الأمانة التي لا أريد أن أموت وهي في عنقي، قصتك كالتالي:

في مخزن مكتظٍّ بالأطفال، حيث الضجيج الخليط من شهقات البكاء المكتومة، وأصوات العصي التي ترتطُّ فوق الأجساد

الصغيرة؛ لتحشرها كالأنعام في صفوف منتظمة؛ فالمزيد من الأعداد ستصل قريبًا، والمكان مزدحم. هناك العديد من الأطفال، فهم بين من يمسح دموعه، وبين من ينادي باسم أمه، ويطلب النجدة، وآخر متبلد من هول الموقف؛ فإذا بصوت مخيف يرتعد فيهز أرجاء المخزن: «كفى..» تسمَّر الأطفال في أماكنهم، حتى أنفاسهم توقفت في صدورهم، وتحجرت الدموع في المُقَلِ، ثم وقف شخص كالغول من خلف مكتبه الموضوع في صدر المخزن، فتكلم بصوته الغليظ:

- «هذا المكان ليس بلا راعٍ.. يبدو أنكم لا تعلمون ما هي الأنظمة هنا» مَرَّرَ نظره في وجوه الأطفال الشاحبة، كأن الدماء قد تجمدت في عروقهم من فرط الخوف، ثم بدأ يملي أنظمته على مسامعهم:

- «الكلام ممنوع، وعقوبته الحبس في غرف العقاب ليوم كامل دون طعام.. محاولة الهرب ممنوعة، وعقوبتها قطع إصبعين من اليد.. من لا يتبع تعليمات المشرفين يُعاقَب بالأعمال الشاقة لمدة أسبوع كامل.. لذا من الأفضل لكم أن تكونوا أولادًا جيدين..».

أما زبانيته من المشرفين فقد كانوا يقفون في أنحاء متفرقة من المخزن، يهزون رؤوسهم مؤيدين له؛ فالجميع هنا متشابهون على ما يبدو في الجوهر والمخبر، فكلهم من بني الأصفر، بعيون صغيرة، وألبسة سوداء، وقلوب أشد سوادًا، ثم هتفوا بصوت واحد كأنهم على وشك الدخول في معركة:

- «تحيا الجمهورية الاشتراكية الصينية.. تحيا.. تحيا.. تحيا» كانت صدورهم ممتلئة بالأنفة والعزة، كانوا يرون أنفسهم أبطالًا أسطوريين أمام الأطفال الخائفين.

تقدم الأطفال إلى الأمام في صفوف لا يعرف الخلل إليها من سبيل، يبدو أن خطبة الغول في الأنظمة تركت رعبًا كبيرًا في نفوس الأطفال؛ الجميع أصبح كالآلات، فلا يريد أحدٌ منهم أن يكون عرضة للعقوبة، كأن كل واحدٍ منهم قد تخلى عن طفولته، وودعها إلى غير رجعة، تخلى عن فكرة العودة إلى البيت، تخلى عن رؤية والديه مرة أخرى.

ثم بدأوا يمشون متتابعين، خطوة للأمام، ثم يقفون، فيقف أحد الأطفال أمام مكتب الغول الذين لا يعرفون من هو، ولا لماذا هم هنا من الأساس، ثم يسلمه ورقة، ويتلفظ له باسم، ثم يُؤخذ الطفل خارجًا، حتى جاء دور إسماعيل، وقف كبقية الأطفال، كان في عينيه شيء من عناد، كان كبركانٍ يتأهب للانفجار، تتطاير منه حِمَمٌ من لهب؛ ضغط على أسنانه بشدة محاولًا أن يبقى هادئًا، لكن الآخر كان يقلب قصاصات بيضاء في يده، ولم يلتفت لإسماعيل، فقط اكتفى بأن قال له: «أنت شيان» وأعطاه ورقة بيضاء عليها بعض الكتابات، لم يفهمها الطفل ذو الأربع سنوات.

همَّ بقول: «التال..» إلا أن لجام الطفل خانه، فلم يذهب إلى حيث ذهب بقية الأولاد، تحجر أمام المكتب الصغير كأنه عمود مُثَبَّتٌ في الأرض، ثم جمع أنفاسه وانفجر في غضب: «أنا إثماعيل.. ابحث عن.. شيان.. خاصتك هذا في مكان آخر، أريد أن أذهب إلى المنزل الآن، أمي تنتظرني»

تطاير الشرر من عينَيِ الضخم الضيقتين؛ بدا كأنه ثور هائج، يهم بنطح فريسته، لم يتمالك غضبه، وأخذ زجاجة كانت بجانبه، قبض عليها قبضة شديدة، فأصبحت كالأسيرة بين يده اليسرى، فأخذ يرفع يده إلى أعلى ارتفاعًا أسعفته به قامته الطوية، ثم هوى بالزجاجة على رأس الطفل الصغير؛ لم يحرك الطفل ساكنًا، وارتمى على أرضية المخزن بلا حراك؛ فألقى

الغول بنظرة ذات معنى لأحد المشرفين الذين كانوا بالقرب منه؛ فأخذ الطفل خارجًا.

أما الأطفال البقية فقط أصابتهم صعقة كهربائية مما رأوا، وهم ينظرون في وجه الغول الذي كان يوحي لهم بأنه لم يأتِ بهم ليلعب معهم، وأن قوانينه صارمة، ولا قوة لهم على غضبه، ثم همد على كرسيه من جديد، وتابع الصغار تقدمهم في الصفوف.

في المشفى قال الطبيب: إن هذا الولد لن يستعيد ذاكرته إلا بصدمة قوية، لكن الجنيرال كان سعيدًا جدًّا، وقال:

- «سيكون هو الصدمة لأولئك الهمج في المستقبل.. سيكون سلاحي القوي في وجوههم..».

وبذلك عشت كأنك طفل صيني.. لقد كان خطئي أنني لم أوصل لك الحقيقة عندما عرفتها.. أخبرتك سابقًا أن الجنيرال قام بطردي.. هذا ولم أخبرك.. فإذا أخبرتك كانت ستحل عليَّ كارثة.. قد لا أراك مجددًا أبدًا؛ لذا سامحني في حقك..

خالتك المحبة لك رغم كل شيء.. كيلا.

ثَنَى إسماعيل الورقة، لم ينطق بشيء؛ عيناه فقط كانتا تتدفقان، ترويان ظمأ السنين في البحث عن الذات، وليلك تبكي هي الأخرى، بقي لديها شك واحد فقط، تريد أن تذبحه بسيف اليقين، تكلم إسماعيل بدون تفكير وهو ينظر باتجاه السماء شارد الذهن:

- «الكوابيس التي أراها في منامي.. رأيت أشياء مشابهة لها في كاشغر.. لقد لاحظت ذلك.. كنت أُدَوِّنُ كل ما أراه.. عندما رأيت أختك خاتون لأول مرة أحسست بصداع رهيب في تلك الليلة.. كنت أرى في منامي امرأة تلف شعرها بتلك الطريقة.. كذلك الشجرة الكبيرة.. كنت أحلم بأنني أقع من شجرة مماثلة لها.. بذلك زادت الكوابيس أكثر.. الصداع أيضًا أصبح حادًّا أكثر.. عندما التقيت بالسيد مسلم.. شعرت بشعور مختلف تلك الليلة.. نبض قلبي بشكل مفاجئ.. أُغْمِيَ عليَّ يومها.. حلمت بأن أحدهم يناديني بأخي وهو يركض.. أسمع أصواتًا مختلفة.. كنت أرى أيضًا أنني ألعب مع أطفال، وأتأرجح بأرجوحة مصنوعة من إطار سيارة.. كتلك التي رأيتها أمام بيت المرأة وابنتها في كاشغر.. ملامحها تأتيني بين الفينة والأخرى»

كانت ليلك تنظر إليه بصدمة، إنها تقترب من الحبل؛ بقي لها القليل لتمسكه، يجب أن تتأكد أولًا قبل إصدار أي حكم تندم عليه بعد ذلك، قاطعها الآخر بصورة من هاتفه:

- «لقد التقطت صورة لهذا..» ناولها الهاتف، لقد كانت صورة الرمز المنحوت في جذع الشجرة الكبيرة، دائرة مكتوب فيها حرفان، اكتشفت فيما بعد أنهما حرفان عربيان (إ. ل)؛ توقفت ليلك عن الحركة، كان فمهًا شاغرًا من الكلمات؛ اضطربت، ثغرها مبتسم، وعينها دامعة، أرادت الضحك والبكاء معًا، ثم خَرَّتْ على الأرض، وسجدت باكية!

إنه إسماعيل الذي شاطرته طفولتها، إنه صديق الصغر، ووجعها الأول، مات والدها قبل أن تعي، لم تعش فاجعة قبل فاجعة إسماعيل، ها هو يقف أمامها الآن بعد أن سلب المحتل عقله، وسرق ذكرياته معها كما حاول سرق ذاكرة الوطن من قبل. أراد الغاصب أن يلف هويته بحبل من لهب، لكن مشيئة الله كانت أكبر من خطته وتدبيره. بكت ليلك فرحًا بلقائه، ثم بكت حزنًا على عدم تذكره إياها، لا تنتهي كل القصص كما تشتهيها الأنفس.

- «ليلك.. الحرب في ميدان العدو حرب غير عادلة.. سأاا» بصوت مهموس بعده صمت مطبق.

* * *

# الفصل العاشر

أجواء عائلية، ومشاعر دافئة، وأطباق لذيذة، وقلوب مفعمة بالأحاسيس والأشواق. تختلط الذكريات بعضها مع بعض، الجميع يفرغ ما اختزنته ذاكرته لسنوات، نقوم باسترجاع من بقايا الذاكرة أمانينا الجميلة، ونروي على بعضنا كيف عاش كل منا بعيدًا عن الآخر، وكيف وجد كل منا الآخر، والحقيقة أن كل منا عاش في قلب الآخر.

جاء دوري بالحديث، الأنظار كلها تحوم حولي، النساء على الجهة اليمنى، والرجال على الجهة اليسرى من الطاولة. كنت أجلس في الكرسي الأمامي، أنظر إلى وجوههم بجوع الغياب، وأروي من نظراتهم عطش الفراق. ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِم جميعًا﴾ إنها حقًّا وصدقًا الآن أمام ناظري، تنحنحت لأخفف تشنج حلقي، وبدأت أروي:

«في ليلة من الليالي رأيت أبي في المنام، قال لي: يا عبد الله.. اجمع بين الأمانات.. ورددها على مسامعي أكثر من مرة.. بقي هذا الصوت في عقلي، ولم يخرج.. كنت أدعو الله في كل ليلة ليرد إليَّ أمانة والدي.. وعزمت على فتح هذا الباب الذي أغلقته منذ زمن.. قد كنت واثقًا تمامًا بأن أمي قد لحقت بوالدي.. لم أكن أعلم بأن الله أبقاها تدثرني بدعائها؛ فتؤنس وحشتي، وتسكن ألمي.. لم أكن أعلم بأن يدًا رحيمة قد أنقذتها من أنياب الردى في غيابي.. ثم في يوم ليس ببعيد تجرأت، وأرسلت أحدهم ليأتيني بخبر عنها.. قيل لي بأن المرأة التي تسكن في بيتنا قد تركت كاشغر منذ فترة قصيرة.. حاولت أن أجد أي أثر لها، لكنني لم أجد.. وكَّلت أمري إلى الله.

كررت: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعا﴾.. أكملت عملي، ولَبَّيْتُ دعوة صديقي خضر في منظمته في كازاخستان؛ لنقل صورة الداخل التركستاني.. أيضًا كنت أنقل بعض المساعدات إلى الداخل في حين سنحت لي الفرصة لذلك.. بعدها أتيت مع خضر إلى تركيا لنفس العمل، والتقيت بالأستاذ حميد لأول مرة.. ثم أطلعني على بعض الأعمال، ذكر منها أنهم يقومون باستقبال عدد من الحالات الإنسانية.. طلبت أن أطلع على بعضها.. توجهت إلى مقر المنظمة.. التقيت بالسيدة نور الله زوجة الأستاذ حميد.. كشفت لها عن نيتي وما جئت لأجله.. أرشدتني إلى غرفة المكتب.. وعندما فتحت الباب بعد أن أخذت الإذن بالدخول.. وجدت ما لم يكن بالحسبان.. ما لم أتوقعه.. ما ظننته مستحيلًا.. رأيت امرأة تنظر نحوي.. تحمل في يدها ملفات تقلبها.. عيناها الرقراقتان هي نفسها، لم تتغير.. بريق عينيها لم يختفِ.. وجهها المدور.. أجنحة الصقر على حاجبيها.. حدقت طويلًا، وكذلك فعَلت.. ركضت نحوها دون وعي.. تحسست وجهها.. بدأنا بالبكاء.. بصوتها العذب نادتني:

«عبد الله» لم أسمع اسمي هذا منذ زمن.. كنت مسلمًا منذ أن تركت كاشغر.. منذ أن نزعت ذاكرتي بيدي..

خاتون يا حوريتي.. كيف وصلتِ؟.. كيف أتيتِ؟.. كيف جارت الدنيا عليكِ؟ خاتون يا مفري في كل فاجعة.. ويا ملجئي بعد كل معركة.. لم أحتمل المدينة في غيابكِ.. بعيدًا عن أشعاركِ.. مضطربة هي الدنيا في عيني إن لم يكسوها اتزانكِ.. تعيسة هي الأفراح إن لم يعلوها ابتسامك.. خاتون يا فرحي وحزني.. هل حقًّا أتى الله بكِ؟؟»

أخرجتني من سكرة اللقاء؛ فقالت: «لقد وجدت شيئًا، مررت إصبعها على اسم محشور في كشف القادمين الجدد إلى قيصري، تأملته جيدًا، ظننت أنني لم أقرأه بدقة؛ عدت لقراءته مرارًا.. (السيدة فاطمة إحسان درغا).. وثبت روحي لله شاكرة، يا من تحيي العظام وهي رميم، مرغت جبهتي على الأرض ساجدًا، ربِّ لا أوفيك حقك، كانت خاتون تسجد خلفي،

أسمع شهقاتها وتمتمة الحمد بشفتيها. ركضنا فورًا إلى السيدة نور الله؛ لنجد أين تنزل أمي، ركضنا كطفلين عادا من الروضة، يريدان الارتماء في حضن أمهما.

وفي منزل السيدة نور الله كانت أمي تجلس على سجادتها كعادتها، تعطي كل منا نصيبه في الدعاء، تبتدئ بأبي البطل، ثم تبدأ بي، وتختتم بإسماعيل، إنها عادتها الدائمة منذ كنا صغارًا.

صمتٌ في حرم اللقاء، تكلمت الأحضان، ربَّ صمت أبلغ من كلام، انكببت أُقَبِّلُ أمي وأَشْتَمُّهَا. في البداية لم تعرف من أنا، ثم جرت عليها قوانين الأمومة، إني لأشم ريح يوسف.. عرفتني أمي، قبَّلتها ما لا يُحصى من القبل، ومرغت وجهي تحت أقدامها، وبكيت كطفل صغير في حجرها، وشهقتُ حتى ظننتُ أن أنفاسي ستنقطع.

خاتون هي الأخرى حصلت على جائزة صبرها، مليكة الصغيرة قد كبرت، أختها الطبيبة تقف أمامها متحجرة، تحاول أن تركب صورة الماضي لخاتون مع المرأة التي تقف أمامها الآن؛ غمرتها خاتون بعطفها كما كانت تفعل دائمًا في صغرها.

ذلك اليوم لم يكن اعتياديًّا، كان تدبيرًا إلهيًّا، وكأن ابتهالاتنا جميعًا صُبت لتلتقي في هذا اليوم، كل الأدعية التي أرسلناها إلى السماء بحرارة تقاطعت هنا في هذا المكان من الأرض. لحظات حتى جاءني اتصال من صديقي خضر أوروزلي يخبرني فيه بأن أمرًا غريبًا قد حدث، ولا يحتمل الانتظار، ذهبت مسرعًا إلى المشفى؛ وجدت هناك ليلك ابنة خالتي؛ حدَّقت في وجهها، أهي أيضًا أتى بها القدر إلى هنا؟ ثم تذكرت ما جئت لأجله، قلت لخضر الذي يبدو عليه الفرح والقلق معًا: أين الشاب؟ وتركت ليلك في صدمتها، ركضتُ نحو الشاب، وإذا به مُغمى عليه كتلك الليلة في ألماتي، خرجت إلى ليلك التي ما زالت تشك في أمري، لقد كانت صغيرة على أن تذكرني الآن وأنا بهذه الهيئة.

«أخبريني.. ما حدث لهذا الشاب.. ألم يكن صينيًّا يعمل في مجال الإعلام؟؟..» لم تَقُلْ لي شيئًا، ناولتني الظرف الذي يحمل الرسالة.. قرأته بمشاعر مختلطة، حمدت الله على نجاة أخي، وازداد غيظي على من كان السبب في سلبه منا؛ انكببت عليه باكيًا حتى استيقظ، هذه المرة رأيت في عينيه بريقًا غير الذي عهدته، لقد كان أخي، تمتم باسمي عدة مرات؛ تحسس بيده المرتعشة وشمة وجهي، كالوشمة الموجودة أيضًا في وجهه، «أنت أخي..» قال بوهن، لقد ملك الدنيا؛ بدون تفكير حملت أخي، وذهبت به إلى منزل السيدة نور الله وزوجها، رافقتنا ليلك، رميت بأخي في حجر أمي «أَدَّيْتُ الأمانة يا أبي..» صرخت بملء صوتي، لم أنم تلك الليلة، كل من أحب حولي، لا ينقصنا شيء، ينقصنا الوطن الذي سنستعيده معًا.

كانت أمي تجلس عن يميني بجانبها خاتون، تتبعها ليلك ومليكة، إنهن متشابهات في كثير من الملامح، يشبهن خالتي - رحمها الله -. عن يساري كان إسماعيل، لم يعد طفلًا، يجلس معصوب الرأس من إثر الضربة التي تلقاها على حافة البركة في باحة الفندق حين أُغمي عليه.

السيدة نور الله والأستاذ حميد يجلسون حول الطاولة معنا، تأثرنا كثيرًا، وأنهينا العشاء، وسار كل واحد منا على رأس عمله. نحن قوم لا نرتاح حتى نكون.. حتى نصل.. لدينا الكثير من الأشياء لنريها للعالم، نحن الجذوع الصغيرة الغضة التي تنمو متحدية كل الظروف القاسية، تتطاول بالرغم من تشذيبها، بالرغم من قص أطرافها، نتجذر عميقًا لنثبت على الإيمان بها.

نحن الذي قلناها منذ أن وطئت قدم المعتدي أرضنا: «لن نبرح حتى نعيدها..» لا تكتمل فرحة اللقاء إلا في دورها وأسواقها، وفي أزقتها وحاراتها، وفي صوت المآذن، وفي محاريب المساجد، وبين جموع المؤمنين، وبين سواعد العاملين، وفي عرس الوطن المنتظر.

* * *

«هناك زوار للعيادة.. دكتورة..» قالت الفتاة التي تقوم بالتسجيل في صالة الانتظار بعد أن فتحت باب الغرفة.

هناك أدوات طبية موضوعة على الطاولة، وسرير للمعاينة، وشراشف بيضاء، ولوحات مكتوبة باللغتين الأيغورية والتركية، فيها معلومات عن الطب الأيغوري.

تجلس مليكة خلف مكتبها الصغير، بملابسها البيضاء، وحجابها الناصع كأنها حمامة جاءت من فردوس الرحمة. كانت قد سعت هي والسيدة نور الله بفتح عيادة صغيرة تطبِّب بالطب الأيغوري وفقًا لما ورثه الأجداد، بالإضافة إلى أبحاث مليكة في علم الأعشاب من منظور حديث؛ نجح الأمر بعد اختبار قدرة مليكة على ذلك، كما قدمت شهادات الخبرة التي عملت بها في عيادة الدكتورة خالدة، وعرضت آخر الأبحاث التي توصلت لها في كاشغر.

تتوالى زيارة المنظمات الأيغورية لها منذ فتحها للعيادة، أيضًا أعداد المرضى تتزايد مع الوقت، كانت تراجع حالات المرضى، بينما طرقت فتاه التسجيل الباب.

- «ليتفضلوا..» قالت مليكة برزانة.

- «السلام عليكم..» بادر السيد خضر أوروزلي بالتحية عند دخوله مع صديقه إلى الغرفة.

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..» ردتها باحترام.

- «نحن هنا ننظر إلى أوضاع الأيغور الذين تساعدهم المنظمات الإنسانية.. دلني الأستاذ حميد عليكِ.. أتيت لرؤية مشروعكِ.. في الحقيقة ظننته أصغر من هذا.. هذا أمر ممتاز ».

- «هذا من فضل الله، ثم من قدسية المشروع الأكبر الذي نحاول الوصول إليه..».

- «التحرير..» قال ستوق الذي كان بجانب السيد خضر - كان قد حضر هو الآخر بصحبة السيد خضر وإسماعيل ومعي إلى تركيا؛ للتعرف إلى أعمال المنظمات التعريفية والإنسانية هنا - لقد طارت الكلمة من ثغره بدون تكلف، قالها بانسجام مع كلمات مليكة التي ظلت محدقة في وجهه، كأنه صوت تعرفه؛ أشاحت بوجهها، ثم أكملت حديثها مع السيد خضر:

- «نحن في حرب بقاء يا سيدي.. المشروع الأكبر للصين في وطننا هو أننا تحولنا إلى أقلية في إقليم تابع لها.. أخذ الأطفال من أهاليهم، وتربيتهم في دور الأيتام التابعة لها.. احتجاز مليون شخص في معسكرات التأهيل.. أخذ فتيات وتزويجهم بشبان صينيين.. الترغيب المستمر في انتقال الصينيين إلى تركستان، وخاصة من قبيلة الهان.. وضع محفزات للزيجات المتكونة من طرف أيغوري وآخر هاني كإعطاء بيت وراتب شهري، وغيرها من المغريات الجذابة.. لكن شيئًا من هذا لا ولن يحدث.. طالما أن هناك دمًا أيغوريًا يسري في عروقنا؛ لن يأخذ أحد أرضنا منا، ولو كلفنا ذلك أرواحنا.. في كاشغر، وفي أورمتشي، وفي

أقسو، وفي كل المدن في الداخل نحن نقاوم.. في المهجر نقاوم في كازاخستان.. في أوزباكستان.. في تركيا.. في أي قطر من أقطار الأرض، لهجتنا لا تختلف.. سنعود يومًا إلى حيث ننتمي..».

- «سلمتِ يا طيبة الأصل..» قال ستوق بانبهار.

- «أتى أحد المرضى..» قالت فتاة الاستقبال على استحياء لمقاطعتها حديثهم؛ تنحى السيد خضر جابنًا، ثم ذهب مطمئن البال، سالي الخاطر، ينظر إلى الحياة بيقين أكبر، هناك آلام دفينة في هذا الشعب، لكنه كأجداده: (البخاري، الترمذي، أحمد يسوي، أرطغرل بك، وأرسلان ألب،..) يخرج من المحنة آلاف المِنَح.

مرَّت في مخيلته المعارك القديمة مع المغول والصليبين، وتذكر التناحر المرير مع الصينيين، لقد عاشت تركستان مئات القصص، لكن الحرب سجال كما يقولون، لا يظفر الظالم إلا ببعض الجولات، أما المعركة الفاصلة مؤكد أنها ستكون في صف الحقيقة، وستكون أيغورية بامتياز.

مرهقة الجسد سارت مليكة باتجاه المنزل بعد يوم طويل، تثني معطفها الطبي الأبيض، تغلق أبواب العيادة، تخطو خطوات بسيطة، تتنهد براحة، ليست الآلام فقط من تأتي مجتمعة، الأفراح تفعل ذلك أيضًا.

تفكر في عملها الجديد، كم حلمت بأن يصبح لها عيادة خاصة! كم حلمت بأن تطور الطب الأيغوري وتريه للعالم، علم أجدادها الثمين، تذكرت الليالي التي دعت الله فيها أن يجمعها بأختيها؛ فاجتمعن في مكان واحد بعد سنين طويلة من ظلم الشتات، ها هو الغيم ينجلي عن وجه أحلامها المستنير.

- «إذا سمحتِ يا مليكة..» أصابتها رعشة حين باغتها الصوت؛ التفتت لتنظر.

- «أعتذر إن أخفتكِ..» ابتعد ستوق عنها قليلًا، هزت رأسها بالنفي، ظلت صامتة بعيون مشدودة، قد سمعت بأن الأشكال تتشابه، لكن أحد لم يخبرها أن الأصوات تملك أشباهًا.

- «لا.. لا.. تفضل..» قالت بعد أن طال السكوت.

- «هل وصلتكِ الرسالة التي أعطيتها لأمي..» حَدَّقَتْ فيه طويلًا، «هل أعرفك لأعرف أمك» أضمرتها في نفسها، ناولها قصاصة صغيرة؛ أخذتها منه في دهشة.

**«أخبروا حوريتي أني بها على لقاء..**

**وأن جسر الأمنيات سيسمح بالوصال..**

**فإما معًا على طريق الجهاد..**

**وإما شرابًا من كأس الشهادة..**

(ع. ح)»

رفعت يديها المرتعشتين إلى ثغرها، وكتمت شهقتها بصعوبة، واستقرت دمعات في زوايا عينيها، أهي الأمنية الأخيرة؟ هل ركضت نحوها تقول لها: لا تنسيني فتغلقي عقد الأمنيات من دوني؟ أهو حقًّا هو؟ عين المقاومة؟ كف الرحمة على اليتامى

والمكلومين؟ أخذت تبكي دون صوت.

- «قد تبدو ملامحي مختلفة.. لكن قلبي ما زال على عهده»

قالها وهو ينظر نحو السماء، ثم أردف:

- «يا مليكة.. لا تحزني على من غَيَّرَ ملامح وجهه.. فملامح الوجه تؤلف أيًّا كانت.. احزني على ذاك الذي أذاب هويته، ومسخ كيانه.. لا تعجبي من لون الطين إذا تغير.. لكن اعجبي من صفو الروح إذا تعكر..».

- «لكن اسمك..» سألت على وجل.

- «أنا عبد الحق.. الحق - جل جلاله - الذي أعطى الحق.. ذلك الحق الذي نناضل ليصمد.. الحق الذي يتجمع في نظرة المظلوم.. الحق الذي يخرج في أنين الأشلاء الممزقة في السجون.. الحق الذي في صدور المشتاقين.. وأنا ستوق.. ستوق بغراخان الذي غَيَّرَ تاريخ الإسلام فينا.. الذي بيَّن ألَّا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالأسبقية والتفاني في خدمة راية الله.. ستوق الذي سنُحَدِّثُ عنه أشبالنا قبل النوم.. وعلى قصصه سينام صغارنا في الأحضان.. سيأكلون شجاعته مع أرغفة الخبز.. سنحتسي عزته مع قهوة الصباح.. ونسقي أثره أشجار الوطن.. الأسماء لا تصنع الرجال يا مليكة.. الأفعال من تعطي الأهمية للأشخاص، وتتخيرهم ليزينوا جدران التاريخ بأعمالهم الجسورة..».

* * *

في الساحة الكبيرة حيث الأشجار العالية، والصرح الواسع، بالقرب من جامع السلطان أحمد في منطقة السلطان أحمد في إسطنبول تقف آيا صوفيا شامخة. هنا المعنى الحقيقي للتعايش الإنساني، يمثل هذا الرمز قبول الإسلام لوجود الآخر، التأصيل للتعامل معه باختلافه، فرض حقوقه وواجباته.

لم يسمع أحدهم أن المسلمين قد أعادوا تأهيل البشر بمعسكرات غسل للأدمغة، عندما فتح السلطان محمد خان الثاني الملقب (بالفاتح) القسطنطينية والدول المجاورة صَرَّحَ تصريحًا يمثل لُبَّ الإسلام، حيث قال:

**«بسم الله الرحمن الرحيم..**

**أنا السلطان محمد خان الفاتح أعلن للعالم أجمع أن أهل البوسنة الفرنسيسكان قد مُنحوا بموجب هذا الفرمان السلطاني حماية جلالتي. نحن نأمر بأن: لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس، ولا لكنائسهم، وصلبانهم!**

**وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي، وبأن أولئك الذين هجروا ديارهم منهم سيحظون بالأمان والحرية.**

**وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليا.**

**لا أحد من دولتنا سواء أكان نبيلًا، أو وزيرًا، أو رجل دين، أو من خدمنا سيتعرض لهم في شرفهم، أو في أنفسهم!**

**لا أحد سوف يهدد، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم، وممتلكاتهم، وكنائسهم، وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية..**

**وبإعلان هذا الفرمان، أقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام، ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين أجمعين بأنه لن نسمح بأن يُخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان!**

انتهى»

إنها كلمات لم تكتب بماء الذهب، بل بماء العدل الذي أتى به نبي الرحمة. تجولنا في آيا صوفيا، ودعونا للسلطان الفاتح محمد، ثم سرنا باتجاه مسجد السلطان أحمد، أو المسجد الأزرق؛ ذبت عشقًا لزخرفته العثمانية، وتخيلت أجدادي يودعون إخوتهم قبل الهجرة، تخيلتهم يسيرون من بلاد ما وراء النهر، من نهر القوقاز، رأيت ردعهم للمتربصين، ورأيتهم يتجذرون هنا على الأناضول، رأيتهم يبنون الدولة العظمى لبنةً لبنةً، ورأيتهم يفتحون البلاد، وكأني أستمع للنبي ﷺ يبشر بهم، ويثني على جيشهم وأميرهم، كأني أسمعه يقول: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ».

على السجاد الأحمر، وتحت الإنارة الهادئة المعلقة فوق الرؤوس، وفي لهيب المشاعر النورانية تقدمتُ الجميع، ورفعت يدي مكبرًا للصلاة، واصطف الآخرون خلفي، كنت أرتدي بزة سوداء جديدة، عبد الحق وإسماعيل كذلك، صلَّت النساء خلفنا، وقفت خاتون، وليلك، ومليكة، وأمي، كانت الفتيات يلبسن ثيابًا بيضاء.

أردنا أن نفتتح حياة السعادة لكلٍّ منا بصلاة شكر، مشاعرنا مضطربة، وعيوننا نديَّة، وقلوبنا لا تتوقف عن الخفقان.

انصرف الضيوف إلى بيوتهم، لكن السعادة بقيت حاضرة في منزلنا هذه الليلة. أمي تجلس في واجهة الصالة، تقدم أخي إسماعيل وبيده زوجته ليلك، قَبَّلَا والدتي، واحتضناها؛ تَمَنَّتْ لهما السعادة الأبدية والذرية الصالحة.

عبد الحق ومليكة أخذا حظهما من والدتي أيضًا، جاء دوري، التفت إلى خاتون، ومسكت معصمها برفق، انكببت على أمي مُقَبِّلًا إياها، أشتم منها رائحة الصبر، ورائحة الثبات والنضال، أشتم رائحة الفرج بعد الهموم المتكالبة، تمتمت بكلمات الحمد والشكر؛ فلولاه - جَلَّ في علاه - لما أشرقت شمس هذه الأيام.

- «كيف وجدتِ طريقكِ إليّ؟؟..» سألتُ خاتون ممازحًا عندما خَلَا المكان إلا منا.

- «بفضل شامتك التي تزين وجهك..» ضحَكتْ، وضحكتُ لضحكها، ضممتُ كفيها بيدي:

- «أتعلمين يا خاتون..

ما أشبه الأنثى بالوطن بعد الشتات..

بالماء بعد جفاف الروح.. بالغذاء بعد مجاعة القلب..

الأنثى هي المتكأ والسند..

إن كنت محاربًا؛ فلن يبقيك على قيد النضال سوى أنثى..

إن كنت معركة فهي استراحتك.. وإن كنت خيلًا فهي سرجك..

وإن كنت سيفًا فهي غمدك.. وأحيانًا تكون هي الجيش الذي تقاتل به العالم أجمع.. خاتون يا كنزي الثمين..

أنتِ جيشي، وكل ألويتي التي سأعود بها إلى تركستان..».

.. تمت